بشرى محمد أبو شرار

٣

# أنيـن المأسوريـن

قصص

## مطبوعات القصة

تصدر عن ندوة الاثنين بالإسكندرية

إشـــراف/

عبـــد الله هاشـــم

لوحة الغلاف للفنان/ محمد حجي

# الإهداء

إلى الأيدى البيضاء التى دفعتنى دوماً إلى الأمام

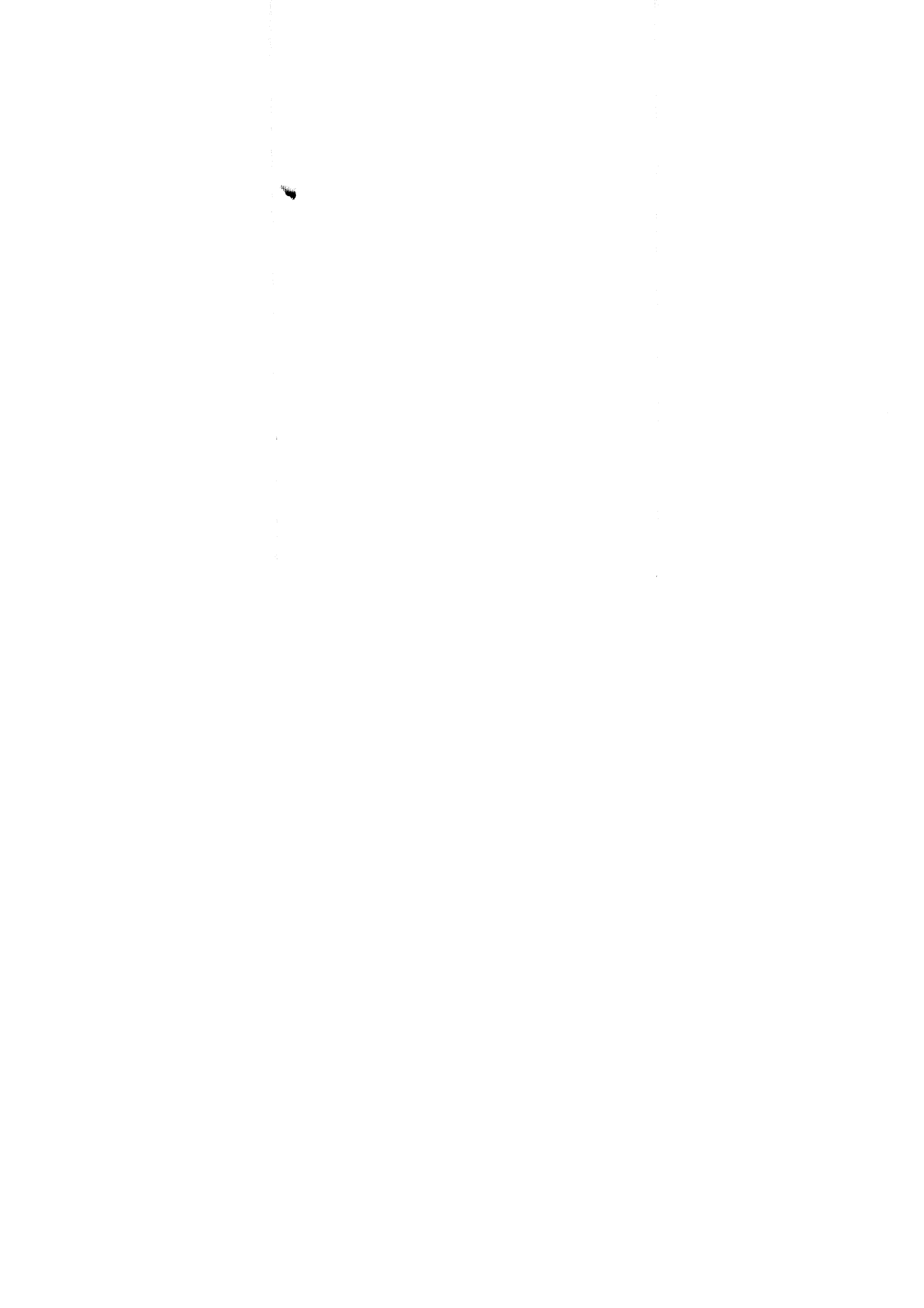
إلى روح أبى

إلى روح أخى ماجد المثقف الثورى

إلى الحبيبة الغالية أمى

إلى كل من أحببتهم أكثر مما يتصورون

**بشرى محمد أبو شرار**



# قهر وحنين

# فنجان قهوة

يتردد صوتها دائماً فى أذنى:

أين أنت.. مشتاقة لك.. متى ستأتين لزيارتى.

صوتها فيه عبرات حنان وحب..

وتحب أن تعطينى اسماً يختلف عن اسمى.. تناديني (بوشـــة) وتتـابع حديثها معى أن أحاول استخلاص الوقت لزيارتها..

سنوات طويلة مرت بنا.. كبر أبناؤها.. كبر أبنائى.. وأصبـــح ابنـــها "رامى" يكتب فى إحدى الصحف المعروفة..

ودوماً تقول لى: رامى ذهب.. رامى يفكر لى فى أشياء وأشياء..

عرفته صغيراً دؤوباً يتحمل مسؤوليات عدة كانت تلقيها عليه والدتـــه عن حب وطاعة.. وكان يتباهى بمكتبته المتواضعة ورفوفها المصنوعة بيد نجار رص الرفوف بعضها فوق بعض لتأخذ أكبر حيز للكتب.

وكلما ذهبت لزيارتها يزداد العدد ويزداد التكدس، وأحلامها مع رامـــى تتسع كما الرفوف والكتب..

أيام تمر وشهور عديدة دون أن أسمع صوتها..

وعلى غير موعد..

رنين تليفون.. وبصوتها الحنون تقول: (بوشة).. أنت فين..؟

وأضع يدى فوق الجبين:

- آه كم أنا مقصرة معك يا أختاه.. دوما أنساك فى زحمة الأيام وأنت تذكريننى.. المهم أنك بخير.

- أنا فى انتظارك اليوم.. هل تستطيعين المجئ ؟

وبعفوية منى أجبتها: نعم أنا قادمة.. ولدى الوقت لأشرب فنجان قهوة عندك.

وتابعت حديثها معى:

- وأى نوع من القهوة تحبين.. الفاتح أم الغامق..؟

- أى نوع لديك يرضينى طالما سأجلس معك..

وفى طريقى إليها بدأت أشتم عبق القهوة.. ورحلت مع أريجها إلى فنجان قهوة أحتسيه مع أمى فى صباح كل يوم.. وفنجان قهوة على صينية فضية تحملها إلى أبى وتصعد بها درجات السلم حيث ينام فى غرفته العلوية ويعلن اليوم عن بداية مع فنجان قهوة تدور على جوانبه الحكايات والأسرار وألغاز لا نعلمها تسير فنتبعها مع بخار فنجانه.. نستعذب الحديث فيه ومعه.. ونمتطى الخيال.. ونقتفى أثر الرسومات على جوانب الفناجين..

فى أيام الحزن تلملم نفسها فناجين القهوة.. نتقاسم الصمت والقهر..

وأيام الفرح تتراقص على زوايا الصينية.. تجاورها أصناف الحلو.. ويدور بينهم الحوار أيهم ألذ رشفة من فنجان قهوة أم قطعة شوكولاته

تذوب في الفم وتلحق بها أنفاس القهوة..؟!

وضعت يدى على جرس الباب.. وإذ هى أمامى وكأننى آتية من عالم بعيد عنها.. كان عناقا طويلا.. احتضنتنى إلى أريكة الجلوس.. وما لبثت أن اتجهت إلى المطبخ كعادتها تحمل صينية الموز واليوسف أفندى.. تقشر أصابع الموز وتقول: تفضلى هذه.. وهذه..

تعترينى فرحة وسعادة بوجودى عندها.. فحنان أمومتها يطغى وينفذ إلى قلبى..

أخذت مكانها بجانبى وهمست لى: قولى لى أخبارك وأحوالك كيف تسير..؟

وما كدت آخذ نفسا طويلا حتى نهضت من مكانها فجأة.. ودخلت المطبخ.. وخرجت منه مسرعة إلى باب الشقة.. ثم نزلت على سرعة درجات السلم.. قادنى حدسى.. إنها لم تجد القهوة فى بيتها ونزلت إلى البواب ليحضرها.. ثوان مضت.. دخلت مسرعة أمامى.. وأنا لم يطاوعنى صبرى فأخذت نفسى إلى حيث هى.. إلى المطبخ.

- ماذا تفعلين ؟ ما الذى يربكك ؟

- كنكة القهوة لا أجدها..

أخذت تعبث بالأدراج وأنا أقف بباب مطبخها أرقب حركتها.. تفتح درجا لتقفل آخر.. وتمد يدها على آخرها إلى نهاية كل واحد منهم.. وتحرك بأناملها أشياء أسمع خشخشتها.. وتعود فتفتح ما تقفله مرة أخرى..

بدأت أفتش معها وأفتح الأدراج التى تقفلها مرة أخرى لأنظر فيها.. وأفتح الدواليب العليا أحاول أن أدلها على مكان قد تجدها فيه.. تهت

معها وسط الملاعق والسكاكين وأكياس الأرز والبهارات.. وما كدت ألتقط أنفاسي حتى قلت لها: عساك تجدينها في الثلاجة..

فاعتلتها ضحكة وقهقهة لها رنين أطربني وأضحكني معها..

– ما هي هذه الكنكة التي تبحثين عنها.. ما شكلها.. هل هي كبيرة أم صغيرة..؟؟

– هي كنكة نحاسية.

وبدأت تهمس لنفسها بكلمات أكاد أسمعها: أين عساها تكون..؟

واتجهت إلى ردهة بجوار المطبخ مقفلة بزجاج هي شبه بلكونة ومعلق فيها دولاب آخر.. فتحته وتاهت يداها في داخلها أظنها تتحسس الأشياء ولا تنظرها.. وهاهي الكنكة تخرج بين أناملها.. الكنكة النحاسية التي تتسع لفنجان قهوة واحد.. نظرتها وإذ بها كنكة مهملة قديمة أحاطت بها هالة خضراء اللون لتركها مدة طويلة.. وهي تتجه نحوي ممسكة بها كمن خاض معركة وربحها.. واتجهت بها إلى صنبور المياه.. فتحته وأخذت سلك التنظيف تغمسه بالمسحوق لتضغط به على الكنكة بكل قوتها من الداخل والخارج وترفعها قرب عينيها تدقق النظر فيها.. ثم تطيح بها مرة أخرى تحت صنبور المياه.. والكنكة لا تكاد تظهر بين أناملها من صغر حجمها إلا في ذات اليمين وذات اليسار تراقصها بيدها وأنا أقف أرقب حركتها.. وفكرت لو جاء البن الآن لأشرب القهوة في هذه الكنكة.. واشتعلت معدتي أو أمعائي من مادة ممكن أن تكون لازالت عالقة في هذا المعدن النحاس.. فكرت أنني سأشرب هذا الفنجان مهما حدث أو سيحدث..

ابتسام.. صوتها الحنون الذي يغشاني بين الحين والحين.. وأنا

(بوشة) التى تطلق عليها دلع لم اعتد عليه.. وتسرع إلى درجـــات الســـلم نزولا وصعودا لتطلب لى القهوة.. وكنكة تاهت بيـــن أشــيائها.. ووقــت أمضته تفتش دون يأس.. كل هذا يجعلنى أغوص فى هذا الفنجان وأتــذوق طعم الحلو والمر فيه.. قد يطول الوقت وأنا أرتشف فيه كل المذاقات التــى أحبها.. وعيناى تتطلعان إليها وهى تتحدث إلى وسعادتها أننـــى أزورهـــا وفى يدى فنجان قهوة من صنع يدها.

# رجل من جبس

اليوم كان موعدى مع ابنتى لنذهب إلى مدرستها الجديدة.. أفقت مبكرا فالموعد بات معى يتقلب فى فراشى مذكرا إياى بأن أكون هناك حيث تنتظرنى على قارعة الطريق..

حاولت الاتصال بها لتطمئن أننى سأكون هناك فى موعدى..

رن جرس الهاتف.. رد صوته الذى خلا من أى تعبير يوحى بالارتياح.. وبسرعة أقفلت خط التليفون.. وبدأت أكمل ارتداء ملابسى وأحاول أن أركز أننى لم أنس شيئا قبل النزول.. فالطريق من بيتى إليها طويل.. واليوم مختلف.. أصبح لدى سيارة قديمة وصغيرة هى عندى من يومين فقط.. وأحاول أن أعتاد عليها.. كل شئ فيها مختلف عن سيارتى التى تركتها هناك.. من المرسيدس إلى الفيات.. تدور معى بعد عدة محاولات.. هدير الموتور يسكن أذناى.. وكلما وقعت فى نقرة صغيرة تطير بى.. وأشعرها تتبعثر منى بحركة معلم.. مددت يدى لأفتح التسجيل وأضغط على الزر بحركة غير إرادية.. فدخلت يدى إلى حيث المجهول.. واصطدمت بإطار بلاستيكى مغلف بالأتربة

التى علقت بأصابع كفى.. فتحت زجاج السيارة لأستعيض بـــه عـــن نغمات الموسيقى.. كل شئ هنا يحتاج إلى تركيز.. من لحظة أن تدور السيارة إلى أن يقفل الباب.. وكل حركة تحتاج إلى مراقبة ومتابعـــة.. ولكنى راضية قانعة بما أنا فيه..

وصلت إلى المكان.. وجدتها تقف على الرصيف.. عيناها تجوبان الطريق لا تدرى من أين آتى إليها.. فاجأتها بندائى عليـــها.. وبـدأت ترتبك لا تدرى مصدر الصوت.. وأعــدت تكــرار ندائـــى.. وقفــت مشدوهة: ماما!.. ما هذا..؟ ما هذه السيارة التى تقودينـــها..؟ أيعقــل هذا..؟ فيات يا ماما..؟

– اركبى.. لا وقت لدينا..

فتحت باب السيارة وعلامات الدهشة سيطرت عليها.. وابتســـامة غطت ملامحها..

– اركبى يا ندى.. هذه السيارة أحسن من الترام والمشـــروع.. مـــا رأيك؟

– ماما أنا فهمت.. أكيد أحسن.. لكن.. الناس لو شاهدونا ماذا تكون فكرتهم..؟ من مرسيدس إلى هذه الفيات..؟!

– يا بنتى.. هذا هو حالى.. وأنا أعلم بظروفى..

أدرت المحرك.. وما أن بدأت أسير انتابتها نفس مشـــاعرى فـــى أول تجربة لى مع السيارة.. وابنتى بجوارى تدور برأسها ذات اليميـن وذات اليسار.. وتفتش حول الكرسى..كأن هناك شيئا ما فقــد منــها.. وأنا أقول: لا يهمك الشئ –فأنا أقرأ ما يجول بأفكارها– لا تهتمى يـــا

ابنتى.. المهم الوصول فى الموعد..

بدأت ترتاح قليلا.. فاسندت ظهرها على مسند الكرسى.. وبـــدأت تتحدث معى بدون حواجز.. وتحكى لـــى مشـــاريعها وطموحاتـــها.. وأحلام تود لو تتحقق معها.. وأنا أسمع وأسمع.. وأجيبها على بعـــض الأشياء..

أخذنا الوقت.. ووصلنا المكان.. وأخـــذت ورق القبـــول لتملـــئ البيانات.. وركبنا عائدين..

كنت سعيدة.. أشعر بها لأنى كنت معها وأحـــاول أن أســـاعدها.. نظرت إلى جراج البيت.. وجدته خاليا.. فتأكدت أنه بالخارج.. فدخلت معها البيت.. وكانت صديقاتها فى انتظارها وانتظار ما قامت بعملـــه فى المدرسة.. وأنا أخذت ركنا فى البيت أستريح على كنبة.. وبسرعة فتحت حقيبتى لأجد كتابا كنت قـــد أحضرتـــه معـــى لقـــراءة بعـــض القصص..

بدأ الوقت يمر.. وندى مع صديقاتها.. وأنا مع الكلمات.. أحسست بالاختناق فاتجهت إلى البلكون.. فلمحت السيارة المرســـيدس تدخـــل الجراج..

إنه هو.. أتى على غير موعد.. وبدون أن يشعر أحد على غـــير عادته يضغط على آلة التنبيه دون انقطاع وبصوت متواصل.. ليعلـــن لنفسه وللجيران أنه قادم من أول دخوله الشارع..

وقفت شاخصة العينين.. درت حول نفسى مرة.. ثم التفت أبحـــث عن حقيبة يدى.. فوجدتها معلقة على كتفى.. أســـرعت إلـــى داخـــل

البيت.. ومنه إلى باب الحديقة الخلفى.. وجدت ندى تقف مذهولة.. ما الذى حدث..؟.. أبوك جاء.. أنا لا أريد أن أتقابل معه.. تحدثت معها دون أن ألتفت إليها.. فالدقيقة لها قيمتها.. نزلت من الباب الخلفى.. وعند آخر السلالم باب آخر كان موصدا.. تسارعت أنفاسى.. تلاحقت.. احتبست.. قدماى تسمرتا خلف الباب الموصد.. كتمت أنفاسى.. وخفت النظر ورائى لأجده أمامى..

خارت قواى.. تماسكت.. وقلت: أنا القوية.. أنا لست بضعيفة.. ما الذى أتى بى هنا هذا اليوم.. أنا مخطئة.. لماذا أتى لهذا المكان.. ولكن ندى.. وأنا.. ليس أمامى سوى الانتظار إلى حين موعد انصرافه..

وما كدت أنتهى مما أنا فيه حتى باغتنى الخادم: سيدتى! سيدى يريدك بالداخل..

فخاطبته: افتح هذا الباب.. أنا لا أريد أن أتحدث معه..

– سيدتى.. عفوا.. أنا لا أستطيع ان أفتح لك الباب

دارت الدنيا بى.. وحاولت أن أستجمع قواى.. قلت له: هكذا إذن..؟!

وأخذت أعدو إلى الداخل حيث هو..

كان واقفا.. وحش آدمى كقالب من الجبس.. صورة تجمدت فى محجرى.. أنفاس تطاردنى بأن أستمر فى العدو ولا أتوقف أبدا..

كانت ندى تقف فى وسط الصالة مذهولة وصديقاتها.. كانوا خيالات بل أشباح.. يحاولن أن يحطن بى ليوقعن بى ليتمكن هذا

الوحش الآدمى..

عدوت.. أسرعت.. توقفت.. وعبارات كـانت لـه وحـده فيـها التصميم والتحدى: أنا لا أريد أن أراك أو أتحدث معك..

وأخذت الباب الرئيسى عدوا.. لا أعرف كيـف كـان طريقـى.. ولكن وصلت إلى الشارع على الرصيف..

- المانجه الطازة

- الليمون الحلو

- اقرا الحوادث

- سلام عليك يا عم محمد

وعدت إلى محطتى التى أتيت منها...

# ساعة المنيه

درت مع عقارب ساعتى ورحلت معها إلى بيت جدرانه متهالكة يعلن عن سنوات ضائعة ظل شاهدا عليها.. أعرف مدخل الشارع جيدا.. رذاذ البحر ينخر أنفى.. توقفت المركبة.. نزل الجميع.. صفقت الأبواب وطرقت أذنى مطرقة نذير.. بقيت أنا وبقى هو.. أنظر لمقبض الباب بجوارى.. وأناملى عساها تتحرك وتدفع الباب.. تجمدت فى مقعدى.. تحجرت النظرة فى مقلتى.. بدأت أسمع ولا أرى.. أسمع صوته بجانبى.. هيا ما بالك تسمرت هكذا.. ألا تدرين أننا بالباب.. لقد نزل الجميع.. ماذا تنتظرين..

حوطنى الصدى.. وبدأت الصور تقترب منى.. وأرى حقائبى المعذبة تسبقنى.. يحملها رجل لم أره من قبل.. أخاله البواب الجديد.. تتبعتها بين يديه وعلى كتفه.. غاب بها بالداخل.. يصعد درجات البيت.. وأنا أتجمد أكثر وأكثر.. ضاقت أنفاسى.. تفتق قلبى ما بين ضلوعى.. ملت برأسى عسانى أغيب فى الردى ويحتضننى العدم..

هزنى صوته.. إنه الماضى البعيد والحاضر القريب.. صرختى دوت

فى أركان المركبة: لا أريد النزول.. لا أستطيع.. عد بى إلى المحطة من حيث أتيت بى..

فاض بركان الدمع يحفر أخاديد الألم على وجهى.. هدير محرك السيارة يصرخ فى أذنى هو وأبنائى.. صراخ يعلو ويعلو ليسد أذنى.. كلماتى المتلاحقة المرتعشة تطلب حقائبى: أريد حقائبى.. أريد الرحيل.. لا أقوى على النزول.. قفلت الأبواب ودار بالمركبة إلى الوراء.. ثم إلى البحر ليقف أمام مقهى على ناصية الطريق.. طلب منى النزول.. استسلمت فى هذه اللحظة.. مددت يدى لمقبض الباب.. ترجلت من السيارة لأجلس فى هذا المقهى معه.. الصورة كانت ضبابا وخيالات ودموع تجول فى العيون دون أن تقويا على السقوط.. تتحرك بطريقة متحدية حزينة.. ابتعدت الصورة وجثمت خيالات على ناظري.. تقترب منى وتعانقنى..

جلست صاغية أستمع لجلادى العزيز: أرجوك حاولى معى.. فأنا أحاول وأنت ساعدينى.. لأجلى أنا.. لأجل أولادنا.. بعودتك تبدلت أشياء كثيرة وخطط كنت قد بدأت فى تنفيذها لأعيش الحياة بدونك وإلى الأبد.. اعطنى الفرصة ولو لآخر مرة..

نهضت معه إلى البيت وأنا كمن خاض جميع المعارك وعاد يعانى سكرات الهزيمة.. فتحت الباب وصعدت درجات السلم.. فتحات على زواياه تنظرنى وأنظرها.. كم من المرات دخلت هنا.. هل هى المرة الأولى أم المرة الألف بعد المليون.. فتح باب البيت.. باب غرفتى يقابلنى.. إنها غرفتى التى أكاد أذكرها.. سرير ومكتب ودولاب.. أشيائى كلها أمامى.. ذكرياتى مبعثرة محتضرة أخالها ماتت.. ما الجديد.. الجديد فى

الحكاية.. ابنتى تنام فى الطرف الآخر من السرير.. كما كنت أنا.. وتلتحف غطائى.. وتستند على وسادتى وجميع ألعابها حولها تؤنسها وتراقص الخيال فيها.. دب وقطة وكلب أسود يحمل قلباً أحمر دامى كما قلبى أنا.. كم جميل هذا الكلب يا بنتى.. لكنى لا أحب القلوب المعلنة عن لونها الأحمر.. فالقلب فى العقل دوماً..

– ما هذا الذى تقولين يا أمى..؟

– يوماً ستعرفين وكل يوم يمر ستعرفين أكثر..

أشيائى كلها أراها وكأننى تركتها بالأمس القريب.. ليتنى كنت إطاراً لصورة "معلقة على حائط".. أو علبة هدية مركونة فى قاع دولاب.. ليتنى كنت قميصاً معلقاً لا يعرف.. لا يشعر.. لا يفهم.. جماد أنا وكل أشيائى هذه.. حقائبى تستلقى أرض الغرفة وأنا أقف بكامل لباسى أنظر إلى حذائى ورباطه المتدلى منه.. وأخذنى تفكير طويل فى هذه اللحظة التى أبدأ بفك الرباط والتحرر من ملابسى لأكون فى حضن النوم والغياب..

لكنى أقف.. أنتظر.. لا أعرف من أو لماذا الانتظار..

غلبنى اليأس الرابض أمامى يخايلنى فى كل أشيائى التى كانت تحكى لى كل الحكايات.. وكل حاجياتى بدت غريبة عنى لا أعرف منذ متى أتيت بها أو من أين أو مِن مَن تكون..

الاستسلام فى السلام راودنى وانكسرت النظرة لتقع على حذاء بدأت بفك رباطه.. ويد تمتد لتلمس قميص نومى القطنى لأدخل فى نسيجه فأغيب معه حيث المجهول.. وأنا هنا لازلت أقف وسط غرفتى.. حائمة النظر.. لتسبقنى الحيرة فى كل الزوايا والأركان.. أى

مكان أختاره.. وفى أى زاوية أكون ابنتى ستبقى مكانى كما كانت فى غيابى.. وأنا سأختار هذه الزاوية.. وبجوارى مكتبى حيث أوراقى وكتبى وأقلامى..

مددت يدى أفتش بين اشيائى على ساعة المنبه.. ألتقطها ووضعتها بجوارى على مكتبى.. وليبدأ رنين عقاربها.. دخلت سريرى أسند رأسى على وسادة لم أنم عليها من قبل.. وأشعر بالتيبس فى أنحائها.. ولكنى تناولتها.. ومع صوت المنبه بدأت ألتقط أنفاسى.. وصوته يذوب فى داخلى.. يجرح صمتى وزمنى والزمن الذى يمضى بى..

كل يوم أنظرها.. عقاربها تقارب الثانية عشرة ظهراً وصباحاً ومساءً.. أسافر فيها عبر الزمن.. أغالبه ويغالبنى.. تطحننى عقاربها.. أحداث وأزمان تمر بى وقلم يزاحم أفكارى.. كلمات أكتبها.. وكلمات أفتش عنها مع عقارب الساعة التى لا تكف.. تدور وأسمعها..

آه منكِ يا ساعتى.. فى هزيع الليل أخالك تتوحين.. لا أعرف من.. ولكنى أعلم بك جيداً.. إنك تتوحين أوجاع الهزيمة والهزائم المتلاحقة على عقاربك الكئيبة هذه.. بوق نفير أنتِ.. يعلن دوماً عن نهاية الحرب وكل الحروب.. لم أعهدك بوقاً يعلن عن البدايات والمطاحنات.. بل عقاربك هلى كل النهايات.. نعم أنتِ يا ساعة المنبه.. يعلو صوت عقاربك فى أذنى عندما يموت الحس ويحتضر الوجدان.. فتكونى أنتِ الشاهدة الوحيدة والأخيرة على النهايات كلها وفيها نهايتى أنا معك.. معك يا ساعة المنبه.

# موعد مع الريح

التقطتُ صوتها عبر سماعة التليفون.. تعالت أصواتنا أنا وهى:
أمى تغيبين كثيراً.. والمكالمات أصبحت قليلة منكِ.. لن أنهى الحديث معكِ إلا بتحديد موعد..
وقبل أن أفكر سارعت هى وقالت: غداً الساعة السابعة مساءً.
وقُفِل الخط.. وحط سكون علىَّ.. وسط صمت مطبق فى مكانى الذى أعيش فيه..
غداً أكون معها.. غداً ألتقى بها لأتأكد من قسمات وجهها الذى بات بعيداً عن ذاكرتى.. وطولِ شعرها وخصلاته المتمردة على ظهرها..
هل أجدها قصرت أم ازدادت طولاً.. أم إنها غيرت من تسريحتها التى اعتدت أن أراها فيها..؟؟
غداً تلتقى العيون لتحيى الذاكرة الغائرة فى وجدان النفس الحزينة..
بتُ أتقلب فى أفكارى وفى خيالات تطوف بى لتمنينى بشكل الغد القادم إلىَّ..
وها قد قربت الساعات والمسافات.. وكنت هناك قبل موعدى.. لم أنس

شيئاً حتى ملابسى كانت شبابية ورائحة عطر تحبه هى.. دائماً تحبنى معها أعيش عمرها الطفولى.. نعيش الحكايات.. نقتسم الضحكات.. حتى شـريط الأغانى انتقيت ما تحبه من ألحان نغماتها سريعة متلاحقة لمغنية لا أعرفها ولكنها تحبها..

أخذت معى ألعاب صغيرة.. دب وقطة.. وتخيلتها لحظة ما يقع نظرها عليهما.. تسعد بهما وتمسكهما ثم تعيدهما إلى مكانهما مرة أخرى.. لم أنس أى شئ قد يزيد ارتباطى بها..

مر وقت وأنا أنتظر قدومها تجوب عيناى كل زوايا المكـــان.. يميـن وشمال وأنا جالسة فى السيارة وأُكثِر النظر فى عقـــارب ســاعتى التـى سارعت وسبقتنى إلى الثامنة..

فراشتى الحائمة أين هى..؟ لم تأت إلىَّ.. تأخرت.. أصبح حضورهـــا حلماً يدور برأسى مع عقارب الساعة..

ترجلت من السيارة أفتش عن تليفون أستطيع التحـــدث منـــه.. فتـــح الخط.. رد صوت المربية..

– أين هى؟..

– ذهبت مع والدها.. ذهبت معه تلتقط دموعها بكفيها..

قُفِل الخط وسط المسافات المتقطعة إليها..

وقفت أمام كابينة التليفون.. لا أدرى إلى أى اتجاه أسير.. إلى سـيارتى أم أخطو إلى الأمام.. أسير إلى نهاية الطريق أم أعود أدراجى من حيـــث أتيت.. حيث صمت الكتب وسكون الجدران وصوت آتٍ من المطبخ مـــن صنبور المياه.. صوت متقطع منتظم يعلن عن الوقت الذى مضى والوقـت

الذى أعيشه..

أدرت محرك السيارة.. لا أرى شيئاً.. لا أشعر بشئ..

كان حالى حال المتعبين على الأرض.. أحمالى ثقلت علـــى كتفـــى.. وصبر يجتاحنى.. يقتلعنى.. ويرمينى.. وأتكسر.. وأعود ألملـــم نفســـى.. وأمسك بكل قواى فتتقطع أناملى.. ولازلت أمسك بكلتا يـــدىَّ المتقطعتيـــن وآهات تأخذ أنفاسى بعيداً وتعيدها مرة أخرى لتذهب وتعود مع الريح.

# الساعات الحرجة

فاض الدمع يملأ مآقيها.. وزاد وجيف قلبها.. فدارت حائرة مـــا بيـــن حالها وحال أولادها.. وزوج ما كف يكيل لها جرعات تزيد من آلامـــــها.. فتنام تسترق الساعات لتغيب فيها عن واقع يؤلمها فلا تجيد الهروب منـــه.. وآخر محطاتها هى صالة الركاب المغادرة.. إلى حيث الوطن.. حيـث الأم والأهل..

فى وطنها تحط رحالها وببعدها تتوقف عقارب ساعتها.. فى وطنـــــها تكثر الحركة من حولها.. الجميع فى دائرة لا تقف أبداً.. كل فـــى فضـــاء شؤونه سائر.. يدورون فى فلك هذه المدينة الجميلة عمان..

أيام تمر تراها تتناسى كل ما فى ماضيها وأشياءه.. لا تحب أن تتذكــر عنه شيئاً.. وتتجنب سؤال القريب والبعيد عن أخبار تخصها قد تأتى بجديـد إليها.. وأيام تعيش فيها الماضى فتذبحها ويذبل وجهها ويخبو نور عينيـها.. وكان المرض عشش فى أنحاء جسدها المتعب.. فتتعجل ساعات الغروب.. تسعى إلى النوم تهدهد فيه أحزانها.. فتغالبها وتتقلب معها فـــى مضجعـــها ويغرق حزنها وسط دموعها فتغرق وسادتها.. وتحط عليها كلمات الرجـاء والعتاب والدعاء.. فى لحظاتها هذه يوشوشها هاتف فى أذنيها أن تنام وتقر

عيناً.. فعين الله لا تنام عن المتعبين..

ويملأ نور الصباح زوايا غرفتها.. تفتح عينيها متكاسلة عن بداية يـوم قد تجده كالأمس.. تصحبها قدماها إلى المطبخ.. تفتح عيـن النـار علـى فنجان قهوة قد يكون به مذاق لبداية يوم جديد.. ساعية بين أنحائه.. تفتـح جوارير وتقفلها.. وتفتعل أصواتاً تسمعها وتنتشر فى أنحاء المنزل.. كلـها إيحاءات للنشاط والحركة.. وتصل الردهة الداخلية للبيـت حيـث غـرف النوم..

تنقر على الباب لتوقظ أخاها على فنجان قهوة.. تحمل الصينيـة بيـن يديها وتدخل.. تفتعل ابتسامة تليق ببداية وإشراقة يوم جديد.. تأخذ جانبـاً من طرف سريره.. يتباطأ فى النهوض فيكاد يراهـا.. وتتبـادل أطـراف الحديث حول ما يخصه.. وأحياناً يزحف الحديث حيـث يطولـها.. فيبـدأ يحكى وتقص إليه أحزانها وأوجاعها.. ويبادر بالرد عليها عسى أن يريحها بما يقوله لها..

وهى دائمة الانتظار إلى أحداث باتت علـى وشـك الظـهور بعدمـا تكررت محادثاتها التليفونية مع محاميها.. لجأت من خلاله إلـى القضـاء ليحل ما عجزت هى عن حله مع أب أطفالها.. عسى أن يقول فيها الكلمـة الفاصلة التى قد تضع حداً لما تعانى منه..

الهاتف النقال فى يدها.. وكثيراً ما تنظر إليه وتعاتبه على قلة رنينـه.. فقليلون من يحادثونها من خلاله.. ولكن ما تنتظره لم يأتها خـبر عنـه.. فاجأها رنين الهاتف مبكراً.. إنه محاميها: سيدتى لقد تحدد موعد الجلسـة ولا داعى لحضورك وتحملك عناء الانتقال والسفر.. سأقوم أنا بكل ما يلزم

لأجلك.. اطمئنى..

ألقت بتليفونها النقال.. وبدأت تشعر أنها فى طريقها إلى بداية النهاية لحل ما تعانيه مع نفسها ومع زوجها.. وبدأت تحسب أيام وكم قاربت على موعد الجلسة وترسم صورة لمحاميها وهو فى قاعة المحكمة يملؤه الحماس لكسب قضية.. يسرد طلبات موكلته التى تنحصر فى انفصال تبغيه عن زوجها..

بقى على موعد الجلسة يومان.. رنين تليفون لا يتوقف.. أسرعت تفتح الخط.. هذا الصوت تعرفه جيداً.. بل كثيراً ما تهرب من سماعه عبر خط الهاتف ومن عباراته التى اعتاد أن يرددها ويسمعها إياها..

- أنت ؟
- نعم
- كيف عرفت رقم تليفونى ؟
- هذا ليس موضوعنا.. طلبى إليكِ أن تسحبى القضية ويتنازل محاميكِ غداً ويتغيب عن حضور الجلسة.. ونعود أنا وأنتِ نحاول مرة أخرى..
- أنا وأنتَ.. مرة أخرى ؟! والمرات السابقة.. بل السنوات السابقة.. ومحاولات إثر محاولات لم أحصد منها إلا هشيماً فى نار قلبى.. وهذه المرة تعاود المحاولة مرة ومرات أخرى.. ولم يكفك ما تحطم منى إذ لم يبق لى سوى ذكريات أليمة أبغضها وسنوات عمر مرت وضاعت منى.. يستحيل أن أسترجعها..
- هذه القضية التى تنادين بها ستطيح بى وبأولادنا..

- أنا أعرف أنكَ تنظر إلى قضيتى من زاويتكَ أنتَ.. واليـــوم أول مرة أسمع منكَ عبارة لم أسمعها من قبل.. أولادنا.. كنت دومـــاً تنسبهم لكَ أنتَ.. أولادك أنتَ وأنتَ العارف بشـــؤونهم وتعـــرف صالحهم.. إلى أن خلتُ نفسى أننى لم أرزق أولاداً أبـــداً.. اليـــوم نتحدث عن اسمك أنت فاليوم لكَ وغداً لى..

- أنا أستسمحكِ أن تتنازلى.. لأجلى أنا.. لأجل حبى لكِ.. ولحظـــة ما تستجيبين لطلبى سأقلب لكِ الدنيا أحلاماً سعيدة.. وأطـــير بـــكِ عبر البلاد نحط فى بلد لنرحل لبلد آخر.. فأنا كلى لـــكِ وطـــوع أناملك.. وما تأمرينى به سأنفذه لكِ..

مالت برأسها ومعها الهاتف النقال.. لم تحتمل كلماته المعســـولة.. فغرقت فى هشيم قلبها المحترق.. متلعثمة فى كلماتها..

- أبناؤك سوف يتحدثون إليكِ وجميعهم يريدون سماع صوتكِ..

قفل الخط.. وبدأت تأتيها المحادثات تباعاً.. أصدقاؤها يتحدثـــون إليها.. ويتوسلون على قضية تخصها فى حق لها..

لا تسمع إلا كلمات الرجاء.. أما هى فلقد جثمت ثلوج عمان علـــى قلبها إلا من خيالات تحوم فى خاطرها لمحاميها الواقف حاملاً أوراقها يطلب حقاً تنشده هى فى قاعة المحكمة.. وكلما يقفـــل خـــط الـــهاتف تتوالى الرسائل التليفونية..

أنا أحبك.. لأجل هذا الحب اسقطى حقك غداً فى طلب انفصـــالك عنى.. امنحينى الفرصة الأخيرة..

ثقل جسدها فى هذه الليلة الثلجية الباردة وكأنها تشهد على تقطـــع

كل ما كان موصولاً.. لم تعد تستطيع أن تتحدث لأحد.. اتجهت إلى غرفتها ولفت نفسها بغطاء لا تدرى إن كان يكفيها ويقيها برد هذه الليلة القاسية..

تحول العالم إلأى بركان يغلى ويقترب دخانه منها.. يصيبها باختناق.. لا شئ أصبح يهم فى هذا اليوم.. كل شئ تساوى.. الشئ واللا شئ.. امتزج الأسود بالأبيض فبات الغد ميتاً هذه الليلة.. ولم تعد تهمها أحداث الغد وما يحمله إليها.. باتت فى نار هشيمها وغابت فى أحضان النوم.. وتركت الهاتف جانباً يبعث بالرنين.. يبعث بالرسائل إلى أن أتى الصباح وملأ نوره حوائط غرفتها الباهتة..

أفاقت من نومتها هذه لم تدر أين كانت طوال الليلة الماضية.. فى سريرها الانفرادى هذا أم فى مكان آخر تجهله.. الساعة عقاربها قاربت التاسعة.. هذه هى الساعة الحاسمة التى توسل إليها بالأمس أن تتدارك الموقف العصيب قبل التاسعة.. نظرت إلى عقارب الساعة تود لو تمضى وتسعى إلى العاشرة.. الحادية عشرة.. تأتى على اليوم بأكمله وتلتهمه فى مغيب شمس هذا اليوم..

هدوء يخيم على غرفتها.. حتى الهاتف سكن فى صمته الكئيب.. مرت لحظاته الحرجة وتكسرت جميع العقارب فى ساعتها.. وساعته هو.. وساعة المحكمة.. ومضى اليوم ساكناً.. مضى ميتاً دون عودة.. سكن كل شئ فى هذا اليوم..

سكت قلب أولادى عن ذكرى وندائى.. نام الأمل واليأس فى فراش واحد..

# رحيل

خلى قلبى من كل قصص الغرام.. رحلت من الشوق والحنيـــن.. رحلت من متعة ودفء الأنامل المتعانقة.. رحلت مـــن غــزو الفكــر والقلق على الحبيب فى الغياب.. رحلت من الظنون والشــكوك ومـــن سؤال يطوقنى دوماً: ألا يزال يحبنى..؟ وسيبقى يشـــتاق لـــى.. إلـــى وجودى بجواره.. وهل يظل قلبه يزداد وجيبه لحظة مـــا أفكــر فـــى الرحيل والبعد عنه..

هل لا زلت أتصاعد مع دخان سيجارته المشتعلة من حنايا الشوق والحنين إلى حيث أكون أنا..؟

وأتسحب رويداً رويداً إلى قصص أخرى جميلة.. أتلصص علـــى قصص الغرام لبراعم لازالت تخطو وتحبو إلى بوتقة الألم فى الحب..

حنان توشوشنى.. إن قلبها يهفو إليه وإنها ترتعد لمجرد أن تلقـــاه على الطريق المجاور لبيتها يرمقها بنظرة الشوق والحنين مـــن عــبر مسافة الشارع الطويل..

بتُ أعيش حكايات وروايات..

وعبير تسرع وتخبرنى أنها تعرفت على شاب على الإنـــترنت..

وأنها لازالت تشعر بالخوف من الانزلاق فى حبه المجنون..

ما أحلى القصص والحكايات.. أخذنى الدوار من كثرة ما طحنـت نفسى مع الأرض أدور بدورانها..

أنا هنا وقد تخففت وتحررت من كل قصص الغرام. وعينـــاى لا زالتا ترقبان الطريق.. أرقب الورود والمحبيـــن والقصـــص الوليـــدة والقصص المسافرة دون عودة.. ولكن أنا هنا أخف من ريشة طـــائر.. لا قيود.. لا ألم.. لا حسرة على ما ذهب ولن يعود..

هنا المنظر أجمل.. وأعمق.. من هنا حيث الرحيل.

# المحطة الأخيرة

رحلت تاركة.. مودعة.. باكية.. التقت دموعى بكفى.. وآهـــات تتلاحق فى صدرى تدوى فأسقط بها فى الــردى.. رحلــت وعينـــاى تحملان أجمل الصور.. تتلاحق المشاهد فى رأسى.. مشـــاهد أحنـــو لها.. ومشاهد اقتلعتنى ورمت بى هنا حيث الرحيل..

كرهت جواز السفر.. كرهت الحافلة التى تحمل حقائبى الباكيــة.. وسئمت التقاء الأكف.. وقبلات الوداع التى تنخر فى عظامى المتهالكة على عتبة الرحيل..

جاءنى الخادم وقد سبقنى إلى الحافلة ليحمل حقائبى إليها.. لمحـت دموعه تنهال على كفيه ومن حزنه لا يبالى بها.. كـــدت أمـــد يـدى وأمسح دمعة فراق.. ولكن خفت الملامة.. خفت أن يكبر عذابه هـــو ويمتد أمله على فراقى ويطولنى ثم يطوينى.. وأنا لم أعد أســتطيع أن أحتمل..

طار بى قطار الألم يسبق المسافات ليرمينى على حـــدود الواقــع الأليم.. هنا يقف رجل الأمن يستلم جواز السفر منـــى ويســمح لـى بالمرور.. ويا ليته منعنى.. يا ليته صرخ فى وجهى بـــأن أعــود ولا

أغادر أبداً..

لم يقرأ الرسالة فى عيني بل تجمد كل شئ.. وسرت حيث أشار لى.. وها هى حقائبى تغادر وتسبقنى إلى الطائرة..

المطار يدب بالحركة من قادم ومغادر.. ولكن هذه المرة أنا مغادرة.. أترك جميع الأمكنة فارغة.. بيتى البعيد هناك بات باهتاً خالياً.. ومكان جلوسى عند صديقتى خلا منى.. وأصدقاء هنا وإخوات هناك.. وشارع هنا وزقاق هناك.. أخذت ركناً بعيداً أحاول أن أستريح فيه.. وقع نظرى على سنترال وتليفون فى المحطة.. تناولت مفكرتى أبحث عن أرقام لأطلبها.. أحمد حميدة.. طلبت رقمه لم أجده ضاع منى عند آخر محطة للمغادرة.. تاهت عيناى فى أرقام مفكرتى.. أصبحت أرقام باردة لا روح فيها.. أرقام تجيب وتحكى.. وأرقام لفها الصمت والشك.. وأخذنى ضباب المحطة الأخيرة.. لفنى وطار بى وأنا فاردة ذراعى معه مغمضة العيون على الذكريات الأليمة.. والأمل البعيد فى أمل التواصل من البعد بنبض حياة لشريان منبعه هناك فى أرض الوادى.. حيث أحمد حميدة.. حنان سعيد.. عبد الله هاشم.. حيث التقينا من زمن ليس ببعيد..

وهذا ما تبقى لى عند محطتى الأخيرة.

# يوميات كاتبة

أفقت من نومى متثاقلة متكاسلة أن أغادر فراشى.. نظرت بطرف عيني إلى ساعة المنبه.. الساعة العاشرة صباحاً.. على مدى سـنوات أكون على الطريق فى السابعة صباحاً أمارس رياضة المشى والتفكـر والتأمل..

أتفحص كل شئ حولى.. كتبى تحاصرنى.. على سريرى كتـاب فوق الوسادة.. أزحته بعيداً قبل أن أخلد للنوم كـى لا أتخبـط بـه.. وكتيب صغير تحت وسادتى.. حرصت عليه فكأننى أخبئه فى أحضان الذاكرة العزيزة..

جرائدى مبعثرة عند موطئ قدمي.. وكعادتى بعد الانتـهاء مـن قراءتها أرمى بها فى هذا المكان.. وكم تكون متعتـى عندمـا أفيـق وأجلس فى الصباح وأول ما أعتدل بقامتى أسرح بنظـرى فـى هـذا الكوم من الجرائد.. وآخذ وعداً على نفسى أنى سأنقلهم اليوم أو غـداً لأستعد للأعداد القادمة.. شيئاً أقرأه.. وشيئاً أتركه وأعلم عليه.. وأفتش فى أشياء بين أعمدة الجرائد لأجد كلمات أحـب كتابتـها.. ومـرات تستهوينى الكتابة.. ومرات أشتاق لقـراءة كتابـاتى القديمـة فـأعيد

قراءتها.. فكم يستهوينى النوم فى أحضان الكلمـــات وفـــى حروفـــها ومعانيها..

بدأت أفكر وأستفيق من حالة النوم الطويلة.. فمن الممكن أن أفعل أشياء كثيرة.. وممكن أن يكون اليوم لا شئ للا شئ..

رن جرس الهاتف.. أين أنتِ..؟ .. أنا الآن فى القاهرة.. أحب لو استطعتِ أن تأتى عندى ونقضى يومين معاً..

القاهرة.. نعم.. سأحاول أعيد الاتصال بك..

رن جرس هاتف آخر: أيـــن أنـــتِ؟.. أود أن تحضـــرى اليـــوم ونتناول الغذاء معاً.. غذاء اليوم

أنا مشغولة فى فترة الغذاء عندى قراءات كثـــيرة وكتابـــات أود الانتهاء منها.. أعدك بالاتصال مرة ثانية لو استطعت..

محادثة تلو محادثة.. كل منها يبدأ بحدث ولكن أجد نفسى أرفـض وبلباقة على أمل أن أستجيب لإحدى الدعوات.. وأبادر بتناول الغـــذاء عند صديقتى أو السفر إلى القاهرة.. ولكن ما الذى يستبقينى فى مكانى اليوم..؟

هو شئ أقوى من كل هذا.. مكتبى هـــذا الـــذى يـــتربع مدخـــل الصالة.. دائماً أنظر إليه وإلى الكرسى الذى أمامه وأتخيلـــه يدعونـــى دوماً إلى الجلوس.. وأصدقاء لى هناك قابعون فى كتب مرصوصـــــة مستقيمة تقف وتشهد على ما يقوله يوسف إدريس.. فاروق جويـــدة.. أحمد حميدة.. نزار.. كتب قانونية من عقود وصيغ وأحكام وأقلام كلما غبت عنها أجدها تدعونى..

وبرقة متناهية أمد يدى فألمس قلمـــى المفضـــل عنـــدى الحـــبر الأسود.. كم أحب أن أكتب به.. إنه يذكرنى بوالدى.. عهدته لسـنوات طويلة كل كتاباته كانت بخط حبر أسود.. وأنا امتداد لـــهذا العمـــلاق الذى يسكن الروح والقلب..

أيقونة عطرية على طرف المكتب لف عليها قلادة صغيرة بـألوان كثيرة متداخلة ساقها الحظ لى يوماً على شاطئ البحر.. يوم كان رجـل يجوب الشاطئ ذهاباً وإياباً يفتش فى الرمال كلما انحسر المـــوج عـــن الشاطئ.. وأنا أرقبه طوال الوقت.. وأسأل ما عساه هو بفاعل وعـــلام يفتش.. وألح السؤال علىَّ مرات.. فتعبت من حيرتى واتجهت إليه..

- يا عم.. عن أى شئ تبحث..؟
- أنا هنا أبحث عن أشياء ضاعت لأناس كثيرين من الزمن البعيـــد والقريب على هذا الشاطئ وشواطئ أخرى.
- هل تجد أشياء ذات قيمة؟
- نعم
- هل رمى البحر لك اليوم شيئاً؟
- نعم.. هذه القلادة.. اقبليها منى هدية عسى الحظ يأتيك من حيـــث لا تدرين..
- حظ!!
- سعادة.. حياة من جديد
- أنا عشت وأعيش الحياة.. وعرفت أولها وبت أعرف آخرها
- أنتِ لا تدرين يا بنيتى الحياة وعالم الأسرار فيها.

ومددت يدى آخذة القلادة أنظر إليها وأتفحصها.. فهل تجلب لـــى حظاً كما قال لى هذا الرجل..؟

أمسكتها بيدي برملها الممزوج بماء الشطآن.. ووضعتـــها فـــى جراب كان معى.. وها هى قابعة على مكتبى.. ولا أخفى عن القلـــب سراً أنها من لحظة دخولها بيتى وكل حياتى دبـــت فيـــها المعـــانى.. ودخلت منحنيات وأفق جديدة أطلت على أخرها وأولها التصاقى بـــهذا المكتب الساحر الذى أنجذب للجلوس خلفه فى أى لحظة أمر بها فـــى أرجاء بيتى هذا.

# إلا هو

شاهدت الضباب.. اقترب منى.. أغرقنى.. اختنقت فيه.. ضاعت أنفاسى.. أسدلت عيني من دخانه.. عتمة كان الطريق.. ضاعت ملامحه.. تحسست جسدى المنهمك.. تحسست ملامحى.. تأكدت من تلاحق أنفاسى.. تحركت أناملى تبحث عن دليل قد يكون لفه ضباب شارعنا.. أمسك بى جذبنى إليه.. استسلمت له..

أحسست الطريق البعيد بات قريباً.. مشيت بجواره.. كان يسكن قلبى.. يسكن الجسد المتعب.. غاب ضباب مدينتنا.. الهواء صار نقياً.. أنفاسنا ملك لنا.. وعينى ترى الصورة واضحة.. وتلفتُ حولى لأتحقق من ممسك بيدى فلم أجد أحداً.. ولكن.. أين هو..؟!!

لقد كان معى.. وكانت رحلتنا طويلة مضنية.. هو كان معى.. الهواء بات نقياً.. يحملنى على صفحات مياه صافية والطريق أمامى واضح..

ولكن أين رفيق كنت أبات فى حضنه.. هو كان معى.. واليوم أستطيع أن أرى كل شئ حولى وكل شئ واضح إلا هو.. هو كان معى.. سند لى فى رحلتى الطويلة.. شق الضباب معى.. أعطانى

نبضاً.. أعطانى أنفاساً استنشقها لأمضى.. هو كـــان معـــى.. فتشـــت عنه.. لا أذكر ملامح له فلقد ضاعت وسط الضباب.. ضاعت علــــى الطريق الموحش.. واليوم بتُ أرى.. ولكن لا أراه هو..

كل شئ واضح أمامى..

إلا هو..

# يا وطن

لحظة درت فيها ما بين باب وشباك..
يتلألأ القمر حائماً بين نجيماته
وأنا أدور ما بين هنا وهناك..
أحباب لى تركتهم هناك خلف المسافات على أشواك الورد إلـــــى أبعد من غروب الشمس..
قدم محمد إلينا وبيده حقيبة يحمل ملابس له فيها يرتديها ليعمـــــل بها..
- أهلاً يا ست..
كلمات مصرية من مصرى فى أرض العرب..
- ازيك غيبت كثيراً
- معلش يا ست ظروف حالت بينى وبين الحضور فى موعدى
محمد.. محطة مصرية.. وعيون ولسان مصرى فى الغربة..
يوم يأتينا أشعر أننى هناك على ضفاف الوادى..
أمسك مشطاً لأسرح شعر ابنتى.. وأفرد ضفائرها على ظــهرها.. لتعلن عن فرحة طفولية فى حضنى أنا وألملم ما تبقى لى فـــى الأرض

البعيدة.. وأنظر من هناك حيث أنا هنا..

ويبقى السؤال:

هل حان وقت العودة..؟

هل آن وقت الرجوع..؟

فأى منهما وطن لى..

هل لى وطن هنا..

أم أن وطنى هناك...؟؟

# قهر وغربة



# عيون مصرية

ردد صوت من البعد عبر الأسلاك: أماه! لقد فقدت قصصي وكتاباتي.. سلبهم مني مثلما سلب عمري وطموحي عبر سنوات طويلة.. أنا لست بآسفة على شئ سوى كتاباتي التي عشت بها..

– ابنتي.. غاليتي.. فلتذهب القصص والكلمات إلى حيث هي.. فأنتِ قادرة أن تكتبي الكثير والكثير.. فالإنسان يكون حيث هو لا حيث يترك حاجياته.

– راودني أمل ضعيف في بداية أهيئ نفسي لها.. وأن لا أعيش على كتاباتي التي كانت.. بل على ما سيكون وما يحمله نهار الغد من أحداث أعيشها.. وأتحسس المعاني فيها.. وأنني لازلت أستطيع أن أجسدها وأبرزها في إطار أرتئيه بزاويتي أنا..

قفل خط التليفون.. أصبحت الآن وحيدة أتأمل كل ما حولي من مكتب ومنضدة وستائر مسدلة برقة تلف المكان الساكن لا نبض لحياة فيه.. راودني شعور بالاختناق.. تركت المنزل وفي خلال ثوان كنت أسير على الطريق.. الجو ربيع.. كل ما حولي مزهر متفتح.. أزهار متزاحمة تفج من باطن الأرض فتخرج متعانقة متواعدة أن يكون لقاؤها ربيعاً.. تهيم

على رؤوس الجبال والوديان.. فى ربيعنا أشجار الياسمين زهور تفوح برائحتها.. شقائق النعمان الأحمر يجاور البنفسج.. كل شئ يعلن عن مولد الجمال.. فالحياة تولد من هنا.. من نيسان.. هذه أمنياتى وسط هذا المهرجان.. مشيت أتلمس هذا الجمال بناظرى وأتحسسه حين أمد يدى وأقطف زهور الياسمين المتدلية من على أسوار الحدائق المتجاورة فأضمها بين أناملى وكأن أحلامى ترقد فى كفى.. وأخذت طريقى إلى العودة ولازال أثر الكلمات التى درات بينى وبين أمى تدور فى رأسى..

وظل السؤال: هل لى من كتابات أكتبها من جديد؟ هل ستراودنى القصص الصغيرة التى أحببت صياغتها على أوراقى مرة وعلى مكتبى ومرة على سريرى.. ثم أعيد قراءتها.. أنسق فيها.. أحذف كلمات.. أضيف كلمات.. إلى أن أعلن عن مولد عمل جديد..؟

فتحت باب منزلى.. كان كل شئ حولى مرتباً منسقاً نظيفاً.. لقد كان محمد هنا على ما يبدو ولكنه غادر البيت قبل وصولى.. الهدوء يخيم على المكان كما تركته من حوالى ساعة أو أكثر.. لفت نظرى ورود على المكتب وضعت فى كوب ملئ بالماء.. وورود أخرى أمام المنضدة فى المجلس المخصص للتليفزيون.. ومن المطبخ إلى غرفة نومى.. كل شئ يوحى بالإشراق والبهجة.. بدأت أتجول فى المنزل وأكتشف فى كل ركن منه ما فعله محمد من لفتات جميلة.. فمن يوم جئت إلى بلدتى هنا وملامح حزن تطغى على وجهى.. ودائماً هو لا يمل السؤال وعلى استحياء شديد.. لا أنظر إليه إلا وهو يتحدث إلىَّ مطرقاً برأسه وعيناه منسدلتان على استحياء شديد: سيدتى! هل أستطيع أن أقدم لك ما يساعدك ويخفف عنك..؟

وأرد على سؤاله بالشكر.. وكان يكفينى منه هذه اللفتة والمشاركة التى يعلن عنها فى كل مناسبة يجدها فرصة للتعبير عن استعداده لأى شئ أطلبه منه ولا يتردد أن يقدمه راضياً سعيداً..

فى غرفتى، على التسريحة، ثلاثة أشرطة وضعهم بطريقة معينة لتلفت نظرى.. إنها أشرطة دينية.. كل ما يمتلكه محمد فى غربته سجادة للصلاة وشريط دينى يستمع إليه حين يجد نفسه يبحث عن الطمأنينة والراحة بعد تعب يوم طويل.. عاهد نفسه أن يكون الإخلاص والجهد فى العمل والتفانى فيه بكل طاقاته لكى يكون ما يكسبه هو الحلال الذى يدخل جيبه فتحل البركة فيما رزقه الله. إيمان وعقيدة لشاب فى العشرين ربيعاً يتسلح بهما فى غربته.. فهو نموذج أحببت أن أكتب عنه.. وفى زحمة الحديث عنه تذكرت كلام أمى يوم تحدثت معى.. لا تنظرى للوراء فكل شئ سوف يأتى أمامك.. وهاهى الأفكار تأتينى من واقع أراه حولى.. محمد لم يتوان لحظة أن يقدم كل ما يستطيع.. هو حاضر معى يريد أن يقدم أى شئ بإخلاص ووفاء.. عاد أخوه محسن اليوم من القاهرة من اقاصى أرض الوادى الأخضر.. معه ما جهزته الأم لأبنائها فى غربتهم.. سمن وتمر وعسل.. أشياء أم وحاجيات أرسلتها وتترك القلب معهم فهم عين الحياة وشريانها.. قلبى معك يا أم محمد فمثلك أمهات كثيرات كم تتشابه قصتك معهم فأنا أعرفك من الأرض البعيدة هنا.. أعرفك جيداً وملامحك مطبوعة فى ذهنى.. أنتِ الأم التى تعرف كيف تصنع من الرجال رجالاً.. أعرفك أماً لمحسن ومحمد وأم الصابرين أيضاً.. تطوفين بخيالى.. تجلسين على طريحة من صنع يديك تفترشينها على أرض غرفة هناك بنيت من طين

الوادى.. وعيناك دائماً معلقتان فى الفضاء إلى آخر مدى للبعد.. عسى أن يكون محمد قادماً أمامك يحمل بيده حقيبته التى يظهر فيها مغرز لإبرة وخيط ساعة أصلحتها من فتحات من جوانب كثيرة.. يحملها وفيها الهدايا.. هدية لأمه.. هدية لأخته.. والخطيبة الحبيبة التى يهفو قلبها كلما تردد اسم خطيبها على لسان أحد فيكم.. وكلما مر بى محمد فى البيت تأتين على الخاطر والبال.. فأذكرك عندما تعتصرك أحلام النهار.. ويجثو محمد أمامك على ركبته مقبلاً يديك ويقول: ها أنا ذا عدت يا أمى.. ودعت أيام غربتى تحت قدميك هنا..!!

وتفيض دموعك وتحتضنينه بعدد سنوات الغربة وعذابها.. وحين تفترسها الأوهام وأيام البعد والفراق تلوح لها كل يوم بأنها قد لا ترى محمداً.. وقد يأتى بلده ولا يجدها تتربع الحصيرة وعيناها شاخصتان دوماً أمام الباب لتكشف الطريق المؤدى إلى المدينة، فهذا هو الطريق لعودة محمد.. أذكرك دوماً كلما رأيت محمداً أمامى فى المنزل.. أراه يحتضن زجاج النافذة ولا يتركه إلا نظيفاً لامعاً.. دائماً أنتِ على البال كلما أطل محمد من أول باب الحديقة يحمل كيسة صغيرة ليرتدى ملابس العمل ويبدأ دون تراخ أو تباطؤ.. من ساعة دخوله أول النهار إلى آخره.. لم ألحظه دخل المطبخ ليصنع لنفسه كوباً من الشاى.. أو يجهز لنفسه وجبة صغيرة يقتات بها لتساعده على مواصلة العمل.. دخلت المطبخ وأعددت كوباً من الشاى وناديته:

– محمد.. الشاى هنا!..

وما أن رآنى حتى اعتلت حمرة غطت ملامح وجهه:

- سيدتى ما هذا.. كيف لك تصنعين لى بنفسك الشاى..؟
- لا تهتم بهذه الأمور.. كنت أتمنى أن تقوم بهذا بنفسك فأشـــعر أن البيت بيتك تتحرك فيه بحرية.. ومن يجهز لك طعام الغداء كـــل يوم؟
- سيدتى! لا أحد.. أنا أتناول وجبات سريعة فى مطعم قريب مـــن بيتى..فأنا أسكن أنا وستة أشخاص نشترك فـــى إيجـــار غرفـــة واحدة..
- لم لا تتعلم الطهى لتنفع نفسك..؟
- أنا فى مرة حاولت أن أجهز وجبة من الأرز المفلفـــل فـــاحترق منى!
- تعال معى.. اتبعنى للمطبخ.. هاهو الأرز ومعياره الماء.. وكذلك المكرونة.. نفس الفكرة..

وفهم منى ما أريده أن يتعلمه.. وفى اليوم التـــالى جـــاء فرحـــاً مبتسماً:

- سيدتى! لقد قمت بعمل الأرز المفلفل وخضار أيضاً.. أنا أشـــكرك جداً على ما قدمتيه لى.

وضم كلتا يديه.. وتشابكت أنامله خجلاً.. وقـــف أمـــامى وتذكـــرت لحظتها أم محمد جالسة هناك تنتظر الولد الذى طالت أيام غربته.. ولكـــن الولد اليوم بدأ يعرف كيف يشعل النار ويطهو الوجبات التى يقتـــات بـــها وتعينه على شقاء عمله.. وهكذا كنت مع محمد.. يوم جاءنى واقفاً مـــتردداً يحمل فى طيات فكره شيئاً ملحاً دفعه لأن يقف أمامى مرتبكاً كيـــف يبـــدأ

الحديث معى..

- محمد.. أسرع وتحدث.. ما الذى تنوى قوله؟

- سيدتى! معذرة.. خطيبتى أرسلت لى رسالة هذا اليوم.. وأنا أقـرأ الكلمات بصعوبة بالغة.. فكيف أرد عليها وأكتبها؟ هل لـى فـى طلب أطلبه منك.. أن تساعدينى فى كتابة رد إليـها.. فـأنت لا تدرين حجم المعاناة التى عانت منها خطيبتى لتصلنـى رسـالتها هذه..

وكيف لى لحظة استغراب لموقف مر عليه سنوات.. عندما كـان الرجل العجوز ضعيف النظر يجهل القراءة والكتابة.. يلجأ لى لكتابـة الرسائل إلى بناته.. وكنت أجد متعة أن أكتب لهم أجمل الكلمات مـن الأب إلى بناته الخمس.. عزيزة وصباح ومرزوقة كنت أتحدث معـهن على الورقة وكأننى أعيش معهن قريبة منهن.. ولكن اليـوم اختلـف الأمر عندى محمد إلى خطيبته.. كل هذا مر بخاطرى فى ثوان.. وفى ثوان أخرى وجدت نفسى أرد عليه: اتبعنى إلى المكتب.

وفى لحظة كنت قد انتهيت من كتابة رسالة إلى خطيبة محمـد.. أزحت هماً كان قد جثم على صدره مع وصول رسالة فرحة مزجـت بالقلق والحيرة أزحتها.. وكم كنت سعيدة كتبت إلى الخطيبة البعيـدة.. أنا بخير وسأعود قريباً.. أتمنى أن أستطيع أن أشترى لـك كـل مـا يساعد قلبك.. فما غربتى إلا لأجل البيت الذى سنبنيه معاً.. وسـافرت كلماتى إلى حضن الوادى..

حزمت حقائبى.. حان وقت الرحيل.. مضيت كعادتى لا أعـرف

موعداً لعودتى.. بدأت أيام الغربة تقترب منى.. غربة تشـــابه غربـــة محمد.. ومحمد اليوم جاء بيننا مبكراً ليساعدنى على حزم حقائبى.. مد يده إلى أشرطة دينية أهداها لى.. وارانى اياها ودسها فى جيب مـــن جيوب الحقيبة الكبيرة.. هو مطرق اليوم واجم على غير عادته.. ككـل يومَ يتحرك بتثاقل.. ولكنه يعلم أنه ليس باختيارى الرحيل..

وسافرت بعدها إلى هناك بأيام قلائـــل.. ودعـــت فيـــها الأهـــل ومحمد.. كان الحزن ينطق فى عينيه ولكنه يعلم أن لى هنـــا أحبابـــاً أيضاً يدفعنى لهم للسفر والرحيل بعيداً..

# حنين

عمان الجميلة دائماً أنا على موعد معك.. أسافر إليـــك.. أســبق المسافات.. أتعجل الوصول لتلمس عجلات الطائرة أرضك..

وما إن هبطت على أرضك حتى فاضت عبرات لملمتـــها بكــف يدى.. الآن حان وقت النوم فى حضن الأم على حافة الأمان.. صــورة أخي تراودني.. ينتظرني فى قاعة القادمين.. والدموع أخذت طريقـــها لا تتوقف كيف لى أن أداريها.. ماذا يتساءل الناس فىَّ الآن..؟ وكيــف يرانى أخي بهذه الصورة.. لقاء بأخته الباكية الحزينة.. آه لـــو يعلــم حجم بركان وقد انفجر على عتبات الوطن.. بدأت أدقق النظر حولى.. ملامح وقسمات وجوه شاردة منهمكة مشغولة.. إنهم منى وأنا منـــهم.. من التاريخ القديم انحدرنا معاً.. وعشنا هنا وهنـــاك نقتســم الجبــال والتلال أعرف كل واحد منهم فى أرض المطار.. لا أحتـــاج لســماع أسماء أو معرفة عنوان لهم.. فالكل هنا فـــى واحــد.. وواحــد فــى الجميع.. درت بناظرى أفتش عن مقعد لأجلس عليه لأهــــدأ قليـــلاً.. وأعيش صدق لحظات الوصول.. لفح وجهى نسمات هواء باردة.. نعم هذه النسائم تعانقنى وتلفنى لتنقلنى إلى بلد الحلم والحقيقة..

أفقت على صوت يحدثنى كيف الحال.. تمـــام أهـــلاً بـــالأخت.. تفضلى ما أجمل عباراتنا وتعاملات اعتدت عليها.. هنا الجميع أخـــوة وأخوات.. ولو سئلت عن اسمى لا يجدون صعوبة من معرفة أصلـــى وأساس عائلتى.. كلنا أقرباء فى وطن يضمنا جميعاً.. قاربت الانتـــهاء من إجراءات خروجي.. لحظات وأكون مع أخي.. أسأله عن إخوتـــى والأحوال من يوم تركتهم.. كل هذا لا يكفينى بعد.. قد يكفينى زيـــت وزعتر وأعشاب لشاى نشربه معاً.. وإفطار الفلافل والفـــول وطبـــق حمص شامي.. كل هذا أشتاق إليه.. وليلة أنامها فـــى ســـرير أختـــى الحبيبة.. أفترش سريرها العريض.. تنام بجوارى.. تحدثنى وأســـتمع إليها.. وصوتها فى أذنى تقول لى: كم أحب حديثك يا أختـــى.. وكـــم أفتقدك.. لم لا تعيشين معى وكفاك ترحالاً بين هنا وهناك.. ألا يكفيـــك عشرين عاماً من البعاد؟..

هى تتحدث إلىّ مستلقية على سريرها.. وبين الحين والحين تلتفت إلىّ لتعرف صدى لكلماتها فلا تجد منى غير سكون وصمت.. فأجدهـــا تستقيم فى سريرها يساورها الشك والقلق من سكوتى.. أراك تفكريـــن فى العودة مرة أخرى!! رحمة بنفسك يا أختى الحبيبة.. كفاكِ ترحالاً.. وابقى معنا نعيش أنا وأنتِ سوياً.. لن أكل بك أبداً طوال العمر..

ومدت يدها لتلمس يدى وفى عيونها نظرة رجاء وأمـــل: ابقـــى معى.. فأنا محتاجة لكِ.. لا تعرفى فى وجودك معنا كم يسعدنا فـــأنتِ دائماً من سنين طويلة العقل والحكمة وسط ما يحل بنا من خلافـــات.. ويوم تتدخلين تذيبينها بين يديك.. وحبنا لك يجعلنا نحب هذا التواجـــد

بيننا.. فمكانتك هى مكانة الأم فى قلوبنا.. بغيـــاب أمنـــا هنـــاك فـــى فلسطين وبعدما تقطعت السبل للوصول إليها كما كنا من قبل..

أسمع كلماتها.. وأغوص فى معانيها وعبارات الصدق تتســـرب فى وجدان نفسى.. وأحبس أنفاسى بين الضلوع..

آه لو تدرين يا اختاه.. آه لو تقدرين انتزاع قلبى من بين الضلـوع وتقذفين به هنا ليضل طريق العودة.. وتكون رحلتى هذه هى الرحلـــة الأخيرة دون رجوع.. آه لو تدرين.. كم أشتاق لفنجـــان قـــهوتك مـــع بزوغ أول خيزط الفجر.. أشعر بك فى فجر كل يـــوم وأنـــت علـــى انتظار له تفتحين شباك غرفتك فيدخل هواء بارد محمل بشذى زهـــور جبالنا ووديانا.. وشجرة الزيتون بشباك غرفتك تعانق شجرة التيـــن.. لم تغب عن بالى براعم شجرة التين هذه وهى متناثرة على اســتحياء.. ومع مرور أيام قلائل تفترش الفضاء وتستلقى علـــى شـــباك غرفتـــك تشاركك أحلامك وتؤنس وحدتك.. زيتون وتين، هذه هى بلادنا مـــن أيام الجدود..

يشدنى الحنين دوماً إلى النزول لقلب المدينة القديمة فـــى عمـــان الجميلة.. كل شئ هناك يوحى بعبق التاريخ.. الشارع الطويل أعرفـــه جيداً من سنين طويلة.. هذا الطريق سار عليه أبى وأجدادى.. لم يتغير شئ فيه.. هى ذاتها اللوحة القديمة الفريدة.. بتُ أعرف جيداً مســالكها وتفريعاتها وكل زاوية فيها تنطق بتاريخنا.. دكاكين عن يمين وشـــمال تجاور بعضها ملتصقة التصاق التعاهد على أزمان مضـــت.. وزمـــن قادم تعلن له عن رسوخ تاريخنا وتراثنا.. التنافس ملحوظ فيما تعلقـــه

الدكاكين القديمة.. أشكال متباينة ومتميزة.. فراء الخـــراف معلقــة.. والفن ظاهر فيها.. وكيف أجاد أهل البلدة حرفة دباغتـــها ومعالجتـــها بطريقة خاصة فيصبح صوفها أملساً ناعماً.. يؤخذ كمنظر جمــــالى أو لبس الجكاكيت ليقوا أنفسهم من برد بلادهم.. وهذا هو دكان الســـجاد تشع الأصالة منه.. ويحكى لنا تأثير الإنسان بما حولـــه فيحكـــى بـــها حكايات يستعين بالرموز والرسومات لتصل للعين الفاحصــــة رســـائل كثيرة تحكى قصص الغائبين عنا والحاضرين.. نتحاكى العيـــن واليـــد عندما أمر بها على خيوط السجاد.. والخيط فرجاً.. وعم محمود وابنـــه ياسر يقفان متعادين لكل من دخل سال وتفتش فى قوالب التراث التـــى تحكى وتعلن عن نفسها أنها سجادة كردية.. وهنا بنى حميدة أشـــكالاً وألواناً وإبداعاً فى صور عديدة.. لو أردت أن أرى عنواناً أجد ولـــو أردت الغوص لأقرأ الأفكار وقصص وحكايات أجد بين ثنايـــا البســـط التى تحدث الزمن وأعلنت عن أصالتها مغزل وخيط.. وحكايات بدوية من قلب الصحراء تروى قصص صبرها على غياب الولـــد أو الأب.. سعادتى كلها عندما أمر بأناملى فألمس خيوط سجادنا لأقرأ ما كتب من بدوية الصحارى هذه وكأنى تركت لى هناك أشـــياء تشـــدنى دومـــاً للعودة..

واليوم عدت واقفة أمام هذا المحل..

كان واقفاً كعادته.. طويل القامة.. سمح الملامح.. مجرد ما وقـــع نظره علىَّ حتى وجدت ترحاباً غـــير عـــادى.. وكـــان لديـــه أمانـــة وينتظرنى بفارغ صبر ليعطينى إياها.. نفس ما أشـــعر بـــه وجدتـــه

عنده.. تركت هنا شيئاً العام الماضى وكأنه يعلم ويريد أن يعيد لى ما تركته:

- أهلاً وسهلاً! متى عدتِ؟
- منذ أيام
- سيدتى! اطلبى ما تريدين.. هذا المحل اعتبرته ملكاً لكِ
- مجاملة لطيفة.. فما فى دكانك هذا ؟
- هذا ملك لنا جميعاً إنه تراث تاريخ.. إنه شعب حضارة كله يكتب هنا من عبق دكانك الذى ضاعت ملامحه وسط سنين عمر مضت
- أين عم محمد..؟
- أبى إنه جالس هناك.. انتظرى قليلاً لأخبره بقدومك..

وقفت أنظر عم محمود أرقبه من بعد.. ما الذى جرى لهذا الرجل.. إنه يمشى كمن يتهاوى مع كل خطوة يخطوها.. يترنح يميناً وشمالاً.. اندفعت إليه مسرعة: عم محمود سلامتك.. ما الذى ألم بك؟.. وكان ياسر أسرع بكرسى ليجلس عليه.. احتضنت يديه وأسندته على ساعدى وأجلسته فى ركن الدكان.. وقفت أتأمل ملامح وجهه.. هذا الرجل الفلسطينى الملامح والملبس يلبس كوفيه وجلباباً من بلادنا هناك من جبل الخليل.. هه عم محمود ما الذى ألم بك؟.. تعبت يوماً فيوم.. والضعف يجتاح البدن.. حدقت النظر فى عينيه.. مالى أرى اليوم عيوناً مودعة للحياة.. عم محمود.. لن أراه المرة القادمة.. وقفت أمامه أنظره وينظرنى.. هل تموت العيون قبل الجسد..؟ عم محمود ستكون بخير.. كيف يا بنيتى.. انظرى إلى جسدى وقد امتلأ بالمياه.. وأصبحت قدماى وبطنى متورمتين.. وكشف

لى عن ساقه.. حتى ساقه تغير لونها وأصبح لونها يميل للزرقة الغـــامق.. يقف بجانبى حزيناً مطرقاً ستكون بخير.. عليك بالراحة.. راحة كيف لـــى بالراحة وأنا الذى كنت أسافر البلاد من القدس إلى دمشق أحمل السجاد من هنا ومن هناك.. وعندما أمشى وأمد الخطى يخالنى من يرانى أننى أعدو.. هذا كله ليس من زمن بعيد العام الماضى فقط.. عم محمـــود لا تنســـى أن الحياة كما تعطينا.. تأخذ منا وأن.. نعم يا بنيتى أنا أعلم ولكن هذا لا يمنـــع أن أحزن على أيامى التى مضت ولن تعود حتى من بلاد الفرنجة.. كـــانوا يلتقطون لى صوراً تذكارية لشدة إعجابهم بعم محمود.. صور ومن قال لك إن الصور تؤخذ من بلاج الفرنجة فقط..؟! إن آلة التصوير معى وســـألتقط لك صورة أنت وياسر..

لمع ضوء الكاميرا.. وأخذت صورة لعم محمود وياسر.. وسلمت بيدى عليه محتضنة إياه.. ونظرت لياسر نظرة هو يفهمها.. أوصيــــه بـــالرجل الذى بات ينتظر..

قفلت بالعودة فما حدث فى دكان عم محمود يكفينى.. وانتهى الفيلم فـــى آلة التصوير.. وتم تحميضه وظهرت صورة عم محمود فى محله العتيـــق الملئ بعبق تاريخى ساحر.. إلى أن جاء يوم نزلت إلى قلب المدينة الساحر ودلفت إلى مكان عم محمود..

– ياسر كيف حالك؟ أين الوالد؟

– الوالد؟ لقد لزم الفراش ولم يعد يستطيع النزول إلى الدكان

لم أجب بكلمة واحدة.. فتحت حقيبة يدى وأخرجت منها صـــورة عم محمود وبجواره ياسر.. تناولها منى ياسر وأطرق صامتاً مركـــزاً

نظره على الصورة.. وإذا بعبرات تفيض مـــن عينيـــه وتقـــع علـــى الصورة التى يمسكها محدقاً بها..

- ياسر.. لم كل هذا؟ هات الصورة.. هذه تعلقها هنا فى هذا الركـن الذى يجلس فيه عم محمود..

كان بكاء حزن وألم.. وكانت الصورة هى البداية الجديدة لياســـر فى دكانه التاريخى الذى بات يقف فيه وحيداً دون عم محمود..

تركته واقفاً باكياً.. وأنا لفنى عبق الشارع القديم.. وفى البال يـوم العودة.. فلى فى هذا الدكان شئ يخصنى أنا.. يعيش بداخلى.. تركتـــه فيه..

# صورة من ألبوم

كعادتى أتصفح بين الحين والحين ألبومات الصور التـــى أحتفــظ بها.. أسترجع شريط من الذكريات من خلال النظر إلى بعض الصــور كلما اشتد الشوق إلى الماضى وأحببت الرجوع إليه..

استوقفتنى صورة لوالدى كانت فى قاعـــة المحكمـــة العســـكرية بغزة.. فهو يعمل محامياً.. وفى الصـــورة يرتـــدى الـــزى الرســـمى للمحامين.. عباءة سوداء وربطة للعنق سوداء.. ومن الخلـــف قفــص يودع فيه المتهمون (الفدائيون).. أقول الفدائيين فى هذا المكان بـــالذات لأن هذه المحكمة لا يقدم فيها إلا من ارتكبوا أفعالاً تمس بأمن وسلامة دولة إسرائيل.. فمن الطبيعى أن لا يقدم على هذا العمل إلا من دفعتـــه سبل الحياة للنهوض والدفاع عن وطنه.. فمن قـــام ودافـــع نســـميهم الفدائيين..

هذه الصورة عشت فيها فترة من الزمـــن وهـــى الفـــترة التـــى استغرقها زمن المحاكمة لهؤلاء الفدائيين.. عشتها من خـــلال والـــدى وطبيعة عمله فى هذه المهنة.. كان دائم العمـــل بطريقـــة دؤبـــة دون توقف وكأن هموم الوطن وأوجاعه تعيش فى داخله..

كنت فى الثالثة عشرة من العمر وأغلب وقتى ملازمة له فى أكثر تحركاته سواء فى العمل أو فى البيت.. فهو دائم الحــرص علــى أن يشركنا فى الكثير من القضايا التى تشغل باله وتؤرقه ويغلــب عليــها الطابع السياسى الوطنى.. فهو يعتبرها مهمة يؤديها ورسالة ينشــرها لنأخذ من خلالها الدروس والعبر فى حب وطننا وكيفية التضحية لأجله بمعناها الكبير.. وأن لكل فرد منا دور فى بنائه مهما كان صغيراً..

كثيراً ما يتباهى ويتفاخر بما يقوم به الفدائيون من أعمال المقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلى.. لم يكتف بهذا بل أخذ على عاتقــه مهمــة الدفاع عن الفدائيين وعن الوطن بإيمان راسخ بالقضية..

كان باحثاً مدققاً يجيد فن الإلقاء والخطابة.. تسعفه إجــادة اللغــة الإنجليزية فى صياغة وتحضير مرافعته أمام القضــاة الإســرائيليين.. يصول ويجول أمامهم وهو الساهر القارئ.. فكثيراً ما نضــب معيــن الكتب فى إعطائه المادة التى يجب أن يصيغها.. فأراه كمشرع يتكلــم بروح القانون..

رأيته ساهراً فى ليالى الشتاء الباردة والساعة ما بعــد منتصــف الليل تقارب الرابعة فجراً.. تفيق والدتى من نومها متعجبة لما هو فيــه من كد وتعب ومثابرة.. هو منهمك فيما بين يديه لا يكاد يشعر بــأحد منا.. وليس لها سوى أن ترميه بنظرات الحيرة والتعجب وتقول لــه: لما كل هذا.. هذه القضية.. أنت تعرف جيداً أن هؤلاء الفدائييــن لــن يحصلوا على حريتهم.. وستعمل المحكمة بل وستصر علــى إدانتــهم وأن تلحق بهم أقصى عقوبة رغم كل المحاولات التى تســعى جــاهداً

إليها.. فإلى أين أنت ماض..؟!

كان مستمعاً جيداً لما قالته والدتى.. ولم يعقب ولو بكلمة واحدة.. بل ظل منكباً باحثاً طوال الليل.. ولم ألحظ أن اليأس ألم به أو أى نـوع إحباط.. فهو جاد فيما هو فيه ماض فيما عقد العزم عليه مستبسلاً فـى محاولته حتى آخر لحظة بإصرار لم أعهد مثيلاً له قط..!

فى صباح اليوم التالى كعادته يستيقظ مبكراً.. وتناولنـا الإفطـار سوياً فاقترابى منه متعة كبيرة لى.. وحديثه يشـدنى.. واليـوم كلـى فضول لأرى والدى كيف سيؤدى مرافعته ويصيغ دفاعه فـى قضيـة تمس وطننا..

هناك على مكتبه مجموعة ضخمة من الكتـب والمراجـع التـى استعان بها فى تحضير دفاعه.. نادانى بصوته الودود وطلب منـى أن أساعده فى حملها لنذهب بها سوياً إلى المحكمة.. فرحت لطلبـه هـذا وتقدمت بخطوة سريعة مزهوة بنفسى فخورة لأنه سيكون لى دور أقوم به حتى لو كان صغيراً.. فكلى رضا وسعادة يوم حملت الكتب علـى كلتا يدي ومشينا على الأقدام باتجاه طريق المحكمة العسكرية.. فكـانت المراجع ثقيلة ولكن والدى أصر على إحضارها لأن المحكمـة تفتقـر مكتبتها لمثل هذه الكتب..

اقتربنا من المكان.. بدايته سور طويل وملاصقة له أسلاك شائكة على امتداد السور.. ومن على البعد مجموعة كبيرة من أهال أبنـاؤهم داخل السجون حضروا ليشـهدوا محاكمتـهم.. نسـاء فلسـطينيات.. شباب.. شيوخ.. جاءوا ليشاهدوا كيف يحاكم الأبناء والأخـوة عندمـا

اختاروا طريق المقاومة والكفاح ضد محتل الوطن والديار.. كلّ يدفع الثمن.. الابن في الداخل يعاني مرارة السجن.. وكل أسرة في فلسطين تفتقد الأبناء الغائبين الحاضرين.. أم فلسطينية عنيدة صلبة جاءت عبر الطريق تشق طريقها من فوق التلال وفي الأحراش تمضي بخطى سريعة ثابتة بعد أن جافا النوم العيون ليالٍ بطولها.. ترقب مجئ هذا اليوم لتشاهد ابنها المذنب الذي لا ذنب له سوى حب لوطن سليب.. أحب الأرض الذي نشأ منها وحمل نفسه أمانة الدفاع عن الأهل والأرض..

تجمع الأهل والأقارب.. جيران وأصدقاء.. كلّ ينتظر أن يُسمَح لهذه الجموع بالدخول منتظرين أن يفتح الباب الخاص بالقاعة.. وكالعادة يقوم الجنود الإسرائيليون بعملية التفتيش.. كل هذا يتم وأنا أحمل الكتب والمراجع فوق يدي.. ووالدي يحمل كتاباته التي طال عليه الليل ودخل نهار وهو يكتب.. يبحث.. يفتش..

لم اشعر بتعب بل تغمرني سعادة بهذه المشاركة.. دخلنا بطريقة منظمة القاعة.. وأخذت مكاني بجانب المجموعة غير المشاركة في الدفاع.. وجلست في مكان يقابل مكان والدي.. فقد كان أمامي هو ومجموعة الدفاع التي تولت الدفاع عن باقي الفدائيين.. نظراتي لم تغب عن والدي.. أدقق في كل حركة يأتي بها.. وكل ملحوظة يبديها.. وعندما يكف عن الكلام ويأخذه تفكير عميق.. وكيف يتعامل بسرعة البديهة واللباقة..

وعلى الجانب الآخر عدد من وكلاء النيابة اليهود..

حضر الشبان الثلاثة (الفدائيون الأبطال).. أذكر أسماءهم جيداً: خالد مطر.. محمد الركوعى.. جهاد عياش..

أخذوا أماكنهم فى قفص خشبى على مقعد خشبى.. هاماتهم مرفوعة وعيونهم إطلالتها فيها حدة وتصميم على ما هم فيه.. كثيراً ما كانوا يتهامسون فى حديث لا أعرف طبيعته.. ولكنهم يبدون كأنهم اعتبروا قاعة المحكمة بيتاً لهم وكل ما فيها ملكاً لهم فمن خلال هذه القاعة التى يتم محاكمتهم فيها.. يتنفسون هواء وطنهم ويجلسون على ترابه.. فأى مكان فوق أرض الوطن يهون ولو يكن مكاناً تسلب فيه حريتهم.. فهم راضون.. باقون.. صامدون..

وبدأت الجلسة تدار.. وبدأ القاضى يوجه الأسئلة.. والنيابة تلقى بقائمة الاتهام.. والجميع فى سكون وصمت.. أنا علمت من والدى أن مواد الاتهام كبيرة وكل ما هم مقدمون به من اتهامات منسوبة إليهم.. هم لم ينكروها بل اعترفوا بها بإصرار وكبرياء.. فهذا فى نظرهم عمل بطولى وواجب وعهداً قطعوه على أنفسهم..

واحد من الثلاثة اسمه محمد الركوعى كان مدرساً للرسم فى مدرسة البنات الثانوية يبدو من ملامحه أنه فى غاية الوادعة والهدوء.. تتجسم فيه روح الفن العالية الرفيعة.. وكان أبى يتولى الدفاع عنه..

بدأت قصته عندما حضرت والدته إلى بيتنا مع بداية خيوط الفجر تطرق بابنا طالبة المساعدة والعون.. فلقد تعودت أن يطرق بابنا فى ساعات الصباح.. تقف وراءه حكاية تلو الأخرى.. تنسج خيوط البطولة.. وكأن أبى هذا طوق للنجاة.. دخلت بيتنا وعيناها تملؤهما

الدموع.. تشكو الضعف وسوء الحال.. منهارة لا تقوى على السير.. فلقد سجنت ابنتها فاطمة يوم سجن محمد..

فاطمة كانت فى الخامسة عشرة من العمر.. استعان أخوها بها فى أعمال المقاومة وتسهيل العمليات الفدائية خصوصاً فى عمليات التمويه أثناء العمليات لضمان نجاحها.. وفاطمة لم تتوان لحظة عن المساعدة.. فقد كانت تحمل سلال البرتقال على رأسها وتمشى بها مسافات طويلة تتجول بها بائعة فى حين تملأ السلال بالقنابل والذخيرة.. تنقلها إلى الفدائيين فى أماكن بعيدة.. فتكون همزة الوصل بينهم..

وفى إحدى عمليات المراقبة والتفتيش وقعت فاطمة مقبوضاً عليها هى وأخاها.. وطلب محمد من والدته أن تذهب لوالدى وتطلب العون لإخراج أخته فاطمة.. كان كل هم الأم إخراج فاطمة من السجن الإسرائيلى خوفاً عليها.. هى لا تخاف على محمد فهو مثله مثل باقى شباب فلسطين يسدد ديناً عليه.. ولكن فاطمة هى تريدها بفطرة الأم وخوفها على ابنتها..

وما إن سمع والدى القصة حتى أخذه الحماس والتصدى والمحاولة لإخراج فاطمة ومساعدة محمد والدفاع عنه..

وبدأ يسعى ويقدم الطلبات ملتمساً من هيئة المحكمة أن تطلق سراح فاطمة وتعيدها لأمها.. فلصغر سنها هى لا تدرى من هذه الأمور شيئاً.. وهى وإن فعلت لم تكن تعلم ما الذى تحمله فى هذه السلال.. وبإصرار وإلحاح والدى بالحجة والمنطق صدر الأمر

بالإفراج عن فاطمة.. وكانت فرحة عارمة بعودتها إلى حضن أمها..

جاءت إلينا بها وقابلتها.. كانت فاطمة فى غاية من الجمال والرقة.. فهى فلسطينية حتى النخاع.. فاطمة البطلة التى حملت روحها على كفها وهبت لمساعدة إخوانها وهى لا تزال فى طور الطفولة.. جاءت تشكر والدى وتقول له: نحن لا نملك من حطام الدنيا إلا ما يكفينا كفافنا..

هم يقطنون معسكر اللاجئين مثلهم مثل آلاف من الأسر والعائلات التى هجرت وشردت.. وعاشوا فى مكان واحد متلاصقين متحابين.. محمد وفاطمة هم أبناء هذا المعسكر.. فاطمة اليوم هنا.. ومحمد هناك مع إخوانه..

قدمت فاطمة لوالدى لوحتين كان قد رسمهما محمد وطلب من والدته أن تهديهما لوالدى..

وكانت أعظم هدية من فنان بطل آثر حبه لوطنه والذود عنه عن حبه لذاته.. يوم تدخل مكتب والدى تجد لوحتين فقط معلقتان على حائط فى مكتبنا هما لمحمد البطل..

وبدأ الصراع فى قاعة المحكمة فى قضية من أكبر القضايا المنظورة أمام المحاكم العسكرية.. وأنا أمام ثلاثة من أبطال فلسطين.. كل يوم أحضر الجلسة لسماع الدفاع وينالنى شرف عظيم لرؤيتهم..

وبدأ العد التنازلى وقاربت القضية على الانتهاء.. وكان من المكرر أن تسمع الإحكام فى الجلسة الأخيرة المنتظرة.. وقبل موعد المحاكمة الأخيرة بيوم حضرت والدة محمد لمقابلة والدى والدموع

تملأ العيون.. وقالت له مخاطبة: لقد طلب منى محمد عدم البكـــاء أو إظهار الحزن عند سماعى الحكم بإدانته.. وطلب منى أيضاً أن أرفـــع شارات النصر وأملأ القاعة بالزغاريد بعد سماع الحكم وأوزع الحلوى على الحاضرين مهما كانت غلاظة العقوبة.. وإن لم أفعل مـــا طلبـــه منى سيمتنع عن مقابلتى يوم الزيارة..

فرح أبى لما سمعه منها.. وشجعها على ما طلبه محمد وقال لها: هذه هى الحرب يا أم محمد فبـــالفرح وشـــارات النصـــر.. نحاربـــهم وبالصمود نحاربهم.. وصمود شبابنا داخل السجون نحاربهم.. الدمـــوع هى الهزيمة والانكسار.

وجاءت الجلسة الأخيرة والتى كانت آخر لقاء بينى وبينهم.. لقـــد أحببتهم ثلاثتهم برغم أننى لم أتحادث معهم.. ولكن قربى منهم جمعنـــى بهم.. وكل يوم أحمل الكتب على ساعدي وأنا سعيدة وكان لى شـــرف رفيع نلته بهذه المشاركة العظيمة..

وقف أبى وكان شامخاً قوياً صوتـــه مجلجـــلاً.. والقضـــاة كـــأن الخوف سكن قلوبهم لما سيسمعونه.. فالموقف كان فيه جلال ورهبـــة.. ومن كلماته التى أذكرها عندما وجه الحديث إلـــى رئيـــس المحكمـــة مخاطباً إياها:

أنتم ماذا تريدون..؟

عندما ابتلعتم وطناً بأكمله كان صعباً عليكم أن تقف شـــوكة فـــى حلقكم فتؤلمكم..

وأشار بإصبعه إلى أبطالنا الأحياء وقال:

هؤلاء الأبطال هم الشوك الذى يسكن الحلوق التى ابتلعت الوطن.. ولن ينفذوا أبداً.. فقضيتهم هى الحق والعدالة.. وهم غير نادمين.. وأجيال قادمة ستكمل المسيرة لأن ما أخذتموه سوف نسترده..

خلت القاعة.. وكانت الأحكام غليظة صارمة..

حزن والدى.. وحزنت مئات الأمهات فى فلسطين.. أطفال وشيوخ.. ولكن المسيرة لا تتوقف متمثلة فى جميع أشكال الدفاع والمقاومة..

خرجت لأكمل دراستى لسنوات ولم أنس أبداً هؤلاء الأبطال.. ودائماً أذكر أننى هنا وهم هناك.. وكلما عدت إلى وطنى أسأل عنهم: ألم يفرج عنهم؟ كيف حالهم؟

مرت سنوات طويلة تمت فيها عمليات.. تبادل أسرى.. وعلمت بطريق المصادفة أن محمد الركوعى الرسام قد تم تهجيره فى إحدى عمليات المبادلة وهو يعيش فى دمشق..

تابعت البحث والسؤال كلما وجدت الفرصة لذلك: ماذا يفعل فى دمشق بعيداً عن تراب الوطن.. هل اختار أن يكون حراً بعيداً عن تراب الوطن فى حين كان يرتضى السجن فوق ترابه!.. ما الذى حدث وما الذى تغير..؟

إلى أن جاء يوم أخبرنى فيه أخى أنه شاهد محمداً يفترش الرصيف فى شوارع دمشق يبيع لوحات يرسمها ليعيش من ثمنها..

هالنى ما سمعت..!! ومالت بى الدنيا..

هذا الوطنى الكبير.. البطل الفدائى.. يفترش الأرصفة خارج حدود الوطن ويبيع فنه بعد أن كان يهديه وهو فقير معدم..!!

يبيع فنه ليعيش منه.. كيف بحق رب الوطن والأرض..؟

كيف لك يا محمد هذا.. وما الذى حدث..؟

ألف سؤال أطرحه وأفتش عن إجابة..

ولكن أنا متأكدة أننى سأجد الإجابة لو قابلت محمداً فى شوارع دمشق.. أكيد أجد الإجابة.. أن أتقابل مع شاب وطنى فدائى فلسطينى القسمات يعيش بعيداً عن هواء بلاده.. يفترش الرصيف فى شوارع دمشق بائعاً للوحاته الفنية..!!

# منزل مهدم

في صباح يوم من أيام الصيف استيقظ الجميع من أفراد أسرتي علـــى حركة غير عادية حول بيتنا على أول الشارع المؤدي إليه.. أبي كان يبــدو عليه التوتر والارتباك.. يدخل المنزل وبعد لحظة نجده يخرج منـــه إلـــى الحديقة.. يشغل نفسه بأي شئ يجده أمامه.. ووالدتي تلاحقه بالأسئلة.. متى حدث هذا..؟ هل شعرت بالحركة غير العادية في أول الليل أم عند طلـــوع الفجر..؟

وكان يجيبها باقتضاب شديد.. فهو شارد الذهن عنا يفكر ويعلو وجهــه قلق لا نعرف مصدره..!

تجمعت أنا وأخواتي نتحادث ونتساءل.. ما الخبر..؟

فأخبرتني شقيقتي أن الجيش الإسرائيلي يحاصر المكان مـــن طلـــوع الفجر.. وفرض حظر التجوال لأجل غير مسمى.. فقلت لها على الفـــور: هذا يعني عدم خروجنا للعب مع أبناء شارعنا هذا اليوم ويمكن أن يمتد هذا الأمر لعدة أيام.. فهزت لي برأسها وكأن هذا أمراً فرض علينا رغماً عنا..

وبدأنا نتساءل عن سبب ما حدث لكل هذا..؟ مع العلم أن المنطقة التي نسكن فيها هادئة تماماً.. عبارة عن فيلات متقاربة لعائلات معروفة.. ولـــم

يصدر من سنوات طويلة ما يعكر صفوها بالشكل الذى لمسناه صباح هــذا اليوم.. وأخذنا نلاحق والدى بالأسئلة عسى أن يــأتى لنــا بإجابــة تشــبع الفضول الذى ملأ قلوبنا.. قال لنا: أنــا لا أدرى.. لقــد ســمعت صــوت انفجارات منذ طلوع الفجر.. وعرفت أن مصدر الصوت جاء من الشــارع المقابل لشارع بيتنا.. فعلى أول شارعنا وعلى امتداده بنى جامع شارك فــى بنائه أبناء منطقتنا وسمى مسجد فلسطين وأمام المسجد حديقة كبيرة ملتفــة بطريقة دائرية.. فكان الصوت مصدره من هناك..

كنت متأملة فيما يحدث من حولى.. فلقد ســاد ســكون عجيــب فــى الشارع.. وفى كل بيت.. الجميع يترقب ما الذى حدث فــى فجــر هــذه الليلة..؟

لقد تعودنا السجن الجماعى.. والعقاب الجماعى عندمــا تشــتعل نــار المقاومة فى صور بطولية رائعة.. يفرض علينا الجيش الحصار.. وقطــع الطرق بين المدن والقرى لمنع الاتصال بين الأهل وذويــهم لفــترات قــد يطول أمدها أو يقصر.. تعودنا أن نلعب بأبسط الأشياء.. ونفتش عن كتاب فى مكتبتنا.. نفتش عن القصة والحكايات الطريفة لنمضى بالوقت ويمضــى بنا.. ألفنا ذلك وتعايشنا معه واقعاً فُرض علينا وعلى أهلنا مــن حولنــا.. فالسكون والصمت فى هذا اليوم كان ممزوجاً بالحزن..

وفى أثناء ما نحن فيه من دموع وقلق أبى وتساؤلات أخوتى صغــاراً وكباراً بدأنا نسمع صوت الطائرات المروحية تمر من فوق سطح منزلنــا ذهاباً وإياباً.. هنا أدرك والدى أن الأمر غاية فى الخطــورة.. لأن وجــود الطائرات المروحية يعنى أن هناك عدداً غير قليل من المصابين.. وأن مــا

يحدث فى الشارع المقابل لشارعنا شبه معركة لا نعرف أبطالـــها.. فـهذا يكفى جداً كى نضع الأيدى على القلوب الواجفة.. وتجف الحلوق.. وتقــف الأنفاس لنأخذها تباعاً.. أخوتنا هناك يقاتلون وسيقتلون.. أخوتنـــا تـنزف دماؤهم على ثرى الوطن فى هذه اللحظة ولا من معين لهم.. قلوب أطفـال فلسطين معهم.. وأبى الذى أدرك معنى الخسارة.. اليوم تخســر فلسـطين أبطالاً عظاما..

لا مساعد.. لا معين.. تجمعنا فى مكان واحد وعيوننـــا فيــها ألــف سؤال.. وأمى غلبتها دموعها وهى تقول: ما باليد حيلة.. ما بالكم والحــزن خيم علينا.. إنهم يقاتلون.. إنهم الأبطال..

وتقدم أخى الصغير يسأل أمى:

– كيف لى الذهاب إليهم ومساعدتهم..؟

– يا بنى ليس لهم سوى الله.. هـــم اختــاروا طريقــهم.. طريــق النضال.. طريق الشهادة.. فلنصل لأجلهم..

دخل أبى واجماً يريد أن يعرف كيف تدور رحى المعركة هذه وما قدر الخسارة التى لحقت بنا..

لم يكن أمامنا سوى الانتظار والأخبار ستأتى لكن المعركة لـــم تنتــه بعد.. فلا زال دوى القنابل والطائرات المروحية تغدو ذهاباً وإياباً..

مضى الوقت الثقيل يذبح القلوب ويدميها..

وتوقف كل شئ وساد الصمت.. ومرت الساعات.. وأعلـــن الجيــش بالسماح لنا بالمرور.. فأسرعنا إلى الشارع.. وسارع أبى أيضـــاً ليعــرف المكان بالتحديد وهو على يقين أن سيسمع قصة بطولية..

عاد أبى إلى البيت مطرقاً يجر خطواته الثقيلة.. وجلس كعادته ليفتح الراديو ليسمع نشرات الأخبار.. تقدمت منه وسألته: ما الخبر يا والدى..؟

فصمت قليلاً.. وأنا أعرف جيداً أنه لا يريد التحدث لأحد.. ولكن الواجب عليه أن يروى لنا قصة أبطال فلسطين..

قال: يا بنيتى! هم فدائيون ثلاثة كانوا يترددون على هذا المنزل.. يجتمعون فيه بين الحين والحين يرسمون الخطط ويعدوا العدة لبداية معركة جديدة ومواجهة جديدة.. ويكيلون الضربة تلو الضربة إلى العدو.. وفى كل مرة فى مقتل يكبدون العدو خسائر فادحة فى الأرواح والمعدات.. وهم ماضون فى طريق الكفاح.. من معسكر اللاجئين خرجوا.. جمعتهم المعاناة وعاهدوا أنفسهم على الجهاد وعدم الاستسلام لما آل إليه الحال الفلسطينى..

أبناء المعسكرات الذين صقلتهم التجربة عندما وجدوا أنفسهم بعيداً عن قراهم ومدنهم التى هجروها رغماً عن إرادتهم خرجوا من أزقة المعسكر ومن البيوت التى بنيت متلاصقة بحجراتها الضيقة ومساعدات عاشوا عليها تعويضاً لهم عن المؤامرة التى دبرت لهذا الشعب.. عاشوا يرتضون الذل والهوان إلى أن ظهر هذا الجيل من الفدائيين ودفعوا أبواب بيوتهم بأرجلهم رافضين غير مبالين بالنهاية سواء كان سجنهم أو شهادتهم.. فهم قادمون تزلزل الأرض من تحت أقدامهم.. جرت الأمهات كثيراً وراءهم وفيهم صرخة دوت فى فضاء الأرض..

لا يا بنى! ارجع إلينا.. صبرنا حتى عيل صبرنا ونحن نودع الشهيد إثر الشهيد.. فمشكلة هذا الوطن لن تقدر على حلها أنت.. عد يا بنى وعش

كما عاش أبوك وأمك..

ولكن طار الكلام كحلقات الدخان فلا الفضاء.. وكـــان فـــى صـــدور الرجال أسى ومرارة.. مرارة النداء من الأم.. ولا مجيب.. فهو لا يقدر أن يجيبها ويلبى نداءها.. فهو ماض لأنه على العهد باق.. عندمـــا مـــد اليـــد وعاهد إخوانه على الثورة والانتفاضة والمقاومة.. فهو ابن للعـــهد لا ابنـــاً لأمه..

ويوم رد البطل على أمه..

أماه! لا تحزنى.. فأنا لا أملك من أمرى شيئاً.. فالوطن ينادينى وأنـــا ألبى النداء مع إخوان لى فى الطريق.. وعلى طريق الشهادة.. هل تجدينني أفضل من قاسم وأمين ومحمد..؟ عندما ذهبوا ولم يعودوا.. ونـــاموا فـــى ثرى الوطن بعدما رووه بدمائهم.. أنا لست بخير منهم يـــا أمـــاه.. فقافلـــة الأبطال تمضى وأنا بينهم.. وهذا شرف لىَ ولك.. أماه وداعاً وإلى لقاء..

خرجت الأجنة من الأرحام.. خرجت حرة تلتمس طريقـــها.. والأم لا تملك وليدها فهو من الأرض وإلى الأرض يعود.. صار هذا ميثـــاق كـــل فلسطينى ارتضى أن يفقد الولد فداءً للنداء والعهد..

وسار الأبطال الثلاثة فى زمرة القافلة.. وخططوا ونفذوا.. أذاقوا العدو المرارة والهوان.. وأصبحت هذه العمليات تشكل خطراً حقيقيـــاً علـــى أم الجندى الإسرائيلى فى تواجده فى المناطق المحتلة.. وبدأ العدو يدبر لـــهم خطة.. وكلف عدداً بالمراقبة أينما ذهبوا.. والأماكن التى يترددون عليـــها.. وفى كل مرة تفشل المحاولات فى الإمساك بهم.. إلى أن جاء هـــذا اليـــوم وبلغت إشارة بأنهم دخلوا هذا المنزل.. منزل (آل الفيومى).. هم جيران لنا

ولكن لم تكن تربطنا بهم صلة سوى معرفة اسم العائلة.. وكعادتهم فى هذه الليلة يجتمعون يخططون لينفذوا وينجحوا فى كل مرة فى إلحاق أكبر الخسائر بالعدو فى هزيمة مادية ومعنوية أكبر.. بعد سهر طوال الليل هموا للخروج فنظر جهاد من النافذة من خلف الستائر إذ شعر بحركة غير عادية فى الحديقة.. أيقن لحظتها أن العدو تمكن من محاصرتهم فى المكان.. وأن الحصار هذه المرة بالدبابات وآليات ثقيلة.. وعدد غير قليل من الأفراد..

همس إلى رفاقه وقال لهم: اليوم هو اليوم الأخير فى تاريخ كفاحنا.. فكيف سنسطر هذا اليوم ليكون اليوم الذى لا يغيب عن الذاكرة أبداً أبداً..؟ أمامنا طريقان.. الاستسلام أو الشهادة.. الطريق الأول ليس بطريقنا ولم نعرفه قط.. الشهادة.. ثم الشهادة.. ولن ننال الشهادة إلا بعد أن نخطط ونذيقهم الهوان والعذاب وطعم الخسارة والمرارة..

واهتدوا إلى الخطة.. فالذخيرة معهم معدة.. واعتلوا مكاناً عالياً علو سقف المنزل.. وساد الصمت الرهيب.. الجيش ينتظر فى الخارج وقت خروجهم لينقض عليهم.. واصطيادهم وانقيادهم إلى معتقلات التعذيب لتسجيل اعترافاتهم..

بعد انتظار طويل بدأت خيوط الفجر فى بزوغها.. وهذا لم يكن فى حسبان العدو.. فتشاوروا فيما بينهم لأخذ قرار للمداهمة بعدد غير قليل.. ودخلوا عقر الدار.. ورأى جهاد وجمال وياسر هذا المنظر من أعلى سقف المنزل فاستحسنوا النتيجة لخطتهم الموضوعة.. وانهالوا عليهم بالقنابل.. فلم يبق منهم واحد يخبر من بالخارج عما جرى وطلبوا قوات إضافية ظناً منهم أن العدد فى الداخل كبير وكأنها حرب تدار رحاها.. وبدأت القوات

تتوافد على المكان والأبطال يلاحقونهم بالضربات القاتلة.. وظل الحال كما هو إلى أن نفذت الذخيرة التى دخلت فى أجساد العدو وكانت إصابات مسددة محكمة نالت منهم قبل أن ينالوا أبطالنا ولو برصاصة واحدة منهم.. فهم لا يعرفون من أين يأتى الهجوم.. وهنا بدأ تفكير جديد يلح على الفدائيين.. الذخيرة نفدت من بين أيديهم.. والعدو فى الخارج تأكله نار الانتقام.. فالأجساد مترامية متمزقة متقطعة الأشلاء.. إنها الدماء.. دماء الغدر تجرى على أرض فلسطين ولكنها لا ترويها.. ففلسطين رويت بدم الشهيد..

ياسر قطع الصمت وقال: لن يطولنا رصاص أو نعل حذائه المصوب لصدورنا.. بأيدينا نختار المضى للشهادة طائعين..

وجاء قائد القوات ليرى من هؤلاء الذين كبدوهم كل هذه الخسائر..؟

فوجد جثث ثلاثتهم.. فأخرجوهم وهم فى ذهول وحيرة.. ثلاثة فقط استطاعوا أن يحيقوا بنا هذه الهزيمة..

# وطن بلا حدود

**(إلى أخى ماجد أبو شرار)**

كان مدرساً فى مدرسة ابتدائية على أطراف مدينة غزة.. مدرسة تضم أطفالاً من أبناء فلسطين.. فيها تعرفوا على على حروف الكلمات لينطقوا الكلمة.. والكلمة تصبح جملة ومعنى يفهمونه ويعيشون حياة كاملة.. يذكرون ما تعلموه فيها ويعلمونه لأجيال قادمة ليكملوا طريقاً ابتدأه الرعيل الأول فى مدرستهم..

هو محب لمهنة التدريس.. بل ذاب عشقاً فيها.. فرسالة التدريس كانت هدفاً ملحاً عليه حينما وجد فيها عطاءً دون حدود.. يتعامل مع تلاميذه بحب وجدية ومطالبة بما تفرضه العلاقة بين التلميذ والمدرس..

ولكن كان هناك تلميذ دائم التقصير فى دروسه.. ويثير الشغب بين زملائه.. وفى بعض الأحيان يعتدى بالضرب عليهم ويمطرهم بوابل من السباب.. صبياً لا يتجاوز عمره إحدى عشر ربيعاً يملؤه العناد والتحدى..

الأستاذ ماجد لم يكف محاولاً أن يأخذه باللين مرة وبالشدة مرة أخرى.. ولكن دون جدوى.. فهو لم يلتفت لما يقال له فى المدرسة عن طريق إبداء النصح والتوبيخ.. أحياناً كان يعبر عن ثورته بالتحدى والعنف فى صورة طفولية تثير الدهشة والتساؤل..!

ولم يجد الأستاذ ماجد بداً من اللجوء إلى الناظر إذ دار حوار بينهما حول "محمد" والتصرف اللازم اتخاذه حياله بعد استنفاد كل محاولة وطريقة داخل المدرسة للتصحيح من سلوكه.. إذ عرض الأستاذ ماجد على الناظر رأياً لاستدعاء ولى أمره والتصميم على هذا الطلب.. خصوصاً أن المدرسة طلبت منهم الحضور ولم يستجب أى من أهله لهذا.. وبعد الاتفاق مع ناظر المدرسة ذهب الأستاذ ماجد وخاطب محمداً فى الفصل.. وقال له بحزم: لن أسمح لك بدخول المدرسة دون حضور ولى أمرك غداً..

أطرق محمد برأسه.. وبدا الوجوم والحيرة عليه.. ولم ينطق بكلمة واحدة.. بل ترك أستاذه ومضى بعيداً يعيد حسابات لا يعرفها أحد غيره..

وبإطلالة يوم جديد وشروق شمسها استيقظ الأستاذ ماجد كعادته آخذاً طريقه إلى المدرسة البعيدة على أطراف المدينة.. فهو سعيد بهذا الطريق الذى يسلكه كل يوم.. يعلم الحروف والكلمات.. والكلمة كيف تصبح جملة.. وكيف يرسم الوطن الغالى فى ذاكرة أطفالنا.. ويأخذ بأناملهم الصغيرة يرسم معهم خريطة لوطنهم.. ويعرفهم أين السهل والبحر والجبل.. وأين تنمو أشجار الزيتون وبيارات البرتقال.. وأنهار وبحيرات ووديان وطنهم.. يعلمهم تاريخ بلادهم.. قصص بطولية يرويها لهم..

يسير بينهم ويذكر عيون تلاميذه وهى معلقة عليه تتبعه أينما كان فى الفصل وهو يروى.. يتتبعون خطواته تاركين لخيالهم العنان معه.. يسألونه عن بلادهم.. ويرويهم هو بإجاباته.. فيترنمون حباً لوطنهم.. فكلما عرفوا وطنهم أحبوه أكثر.. وكلما عرفوا عن أجيال ضحت وأحبته.. أحبوه أكثر..

وصل ماجد المدرسة.. وأول ما تذكره محمداً وما طلبه منه بالأمس

فى إصرار على حضور ولى أمره لإصلاح حال ولده.. وكعادتـــه حـــال وصوله يدخل غرفة الناظر.. وبدخوله وجد امرأة جالسة على مقعد خشـبى مقابل لمكتب الناظر.. يبدو عليها القلق وكأنها لأول مرة تدخل المدرســة.. جلست تلملم خوفها وقلقها ورهبتها.. وبدخوله أشار الناظر إليــه مخاطبـاً إياها: هاهو الأستاذ ماجد قد حضر..

"صباح الخير"..

الناظر: إنها والدة محمد.. حضرت أخيراً بعد إصـــرار منــك علـــى حضور ولى أمره..

ماجد: أهلاً وسهلاً سيدتى.. أنا آسف على إزعاجك وطلــب حضــور ولى أمر ولدك.. ولكننى كنت أفضل حضور والده لأن محمداً يحتاج إلـــى شئ من الشدة بعد فشل كل المحاولات لدينا فى إصــــلاح ســلوكه داخــل المدرسة ليستطيع أن يساير زملاءه فى التحصيل والنجاح..

- سيدى! لقد ضقت ذرعاً من حالى.. فأبوه مات من سنين وأنا أقوم على رعايته هو وأخوته.. ولديه عمٌ قاسى القلب خفت أن أبلغـــه بالأمر فيشبعه ضرباً.. وأنا لا أريد أن أضيف إلى محمد أوجـــاع فوق أوجاعه.. فولدى يعـــانى مـــرارة اليتـــم فـــى فقـــدان الأب والحماية.. محمد يحتاج ليد ترعاه..

هنا توقفت عن الكلام وذرفت الدموع غزيـــرة.. فـــاضت الدمـــوع.. واختنقت العبارات.. هى تعانى فقدان الزوج ويتم أولادها وقلة دخلها.. ولا معين لها سوى الله اللطيف بعباده..

تركتهم وأدارت ظهرها غير مودعة وكأنها تحملهم أمانـــة أودعتـــها

لديهم..

وقف ماجد ساهماً ولم ينطق بكلمة واحدة.. محمد الطفل الشقى العنيد لم يحضر إلى المدرسة فى هذا اليوم مع والدته.. ولم يذكر أبداً قبل ذلك أنه فقد أبيه من سنوات طفولته الأولى خوفاً من أن يزيد إحساساً يضعفه أكثر ويتضاعف داخله.. فقرر أن يظهر وسط زملائه قوياً.. شرساً.. عنيداً..

انتهى يوم دراسى وعاد ماجد من نفس طريقه المعتاد.. عاد وفى رأسه ألف فكرة وفكرة.. ولكن ما باله ومحمد يأتى فى مقدمة تفكيره.. ففى أثناء سيره وهو غارق فيما هو فيه فوجئ بحجارة تلقى عليه..!

تنبه ماجد أنه المقصود من رمى الحجارة.. وبسرعة أخذ يفتش عن مكان يحتمى فيه حتى لا يصاب بأذى.. فقد كان على الطريق مقبرة كان يمشى محاذياً لها.. فاحتمى بها وهو يبحث بعينيه عن ملقيها ومصدرها.. فكانت المفاجأة.. إذ هو محمد يرمى ماجد بالحجارة وكله تصميم على إيقاع الأذى به.. استطاع ماجد أن يبتعد بصعوبة ليواصل رحلته إلى البيت ومحمد يسيطر على تفكيره.. وسؤال يلح عليه: لماذا فعل كل هذا بى..؟

فى صباح اليوم التالى كان ماجد آخذاً طريقه المعتاد إلى المدرسة البعيدة.. وبدخوله المدرسة كانت عيناه تفتشان.. تبحثان عن التلميذ العنيد بين زملائه.. بين مقاعد الفصول.. أين عساه هو الآن..؟ هل يكون مختفياً.. بعدما عرف أننى رأيته وهو يرمينى بالحجارة.. أم أنه لم يحضر إلى المدرسة ويتركها فينسى الحروف وكيف يكون كلمة.. واجتاح ماجد إصرار على إحضاره والبحث عنه لو لزم الأمر.. وفى أثناء تفكيره وبحثه

وحيرته وجده أمامه وجهاً لوجه.. تقدم محمد خطوة تلو الخطوة فى ثبـــات وهدوء وعيناه تلمعان بنظرة التحدى واللوم والعتاب.. لم يبادله ماجد هـــذه النظرة.. بل كانت منه نظرة حانية كلها حب.. وعطف وود.. وأشار إليـــه بالاقتراب أكثر منه.. ومد ماجد يده ليلمس يد محمد.. اليد التى رمته بوابل من الحجارة.. أمسك بيده بأنامله الصغيرة التى باتت فى حضن يد مـــاجد.. فبدون أى كلمة أو حرف مشى به ممسكاً بيده.. ودخـــلا الفصـــل ســـوياً والتلاميذ ينظرون.. ما هذا الذى يرون..! الأستاذ ماجد يده فى يد محمـــد.. همس إبراهيم لزميله خليل: من الجائز أن يكون محمد قريباً للأستاذ مـــاجد من زمن ونحن لا ندرى.. أو جار له.. أم ماذا..؟!

هنا صمت الجميع فى انتظار ما سيقوله أســـتاذهم.. وتحـــدث مـــاجد موجهاً إليهم الحديث: محمد زميلكم كلنا نحبه لأنه ولد ذكى.. وأنا على ثقـة بأنه سيكون من خيرة أبناء هذا الفصل..

تهامس التلاميذ وبدءوا يتبادلون النظرات فيما بينـــهم متعجبيـــن لمـــا سمعوه من أستاذهم الذى لم يكف يوماً عن توجيه اللوم لمحمد ليصلح مـــن حاله.. فما يحدث اليوم..؟

انتهى اليوم الدراسى وبدأ ماجد يستعد للعودة إلى منزله تاركاً المدرسة ليأخذ طريقه التى ألفه واعتاد عليه.. سمع خطوات تقترب مسرعة منـــه.. فتلفت وراءه وإذ به محمد يمد يده هذه المرة هو يمسك بيد أستاذه ويكمـــل معه الطريق.. فأمسك ماجد بيده ولم ينطق كل منهما بكلمة.. بـــل لفـــهما صمت هادئ وكأنهما وجدا فى الصمت طريقاً إلى حوار طويل لا ينتـــهى أبداً.. تداخلت أحاسيسه.. كثيرة.. امتزجت ليتولد عنها علاقة جميلة كـــان

ميلادها صباح هذا اليوم.. وأصبح ماجد هو العالم الذى يطل على محمـد.. ومحمد حريص على التزامه بما يطلب منه من أستاذه ومدرسـيه حرصـاً على الصورة التى رسمها له ماجد فى الفصل فيكـون القـدوة لزملائـه.. أصبح يحب الحروف ويكون منها الكلمات لتصبح جملاً.. ويمسـك قلمـاً وكتاباً.. ويقرأ حيناً.. ويكتب حيناً.. ويقرأ ماجد ما كتب محمد.. كتب عـن تاريخ بلاده وعن قصص الجدود.. ويصف المكان الـذى يعيـش فيـه.. ويعطى لخياله العنان فى حكايات طريفة ينسجها.. ممتعة تتجسد طفولتـه فيها.. وماجد تغمره فرحة كبيرة سعيد بتلميذه.. فلم يخيـب ظنـه.. بـل اكتشف فيه أشياء كان يجهلها هو وجميع المحيطين به.. فقدراته هائلـة.. يحاول بكل جهده أن يبرزها حباً منه أن يرى فى عيون أستاذه نظرة فخـر وتشجيع له..

وبدأت اللقاءات تتكرر بصفة مستمرة خارج المدرسة.. ويزور أسـتاذه فى منزله.. هناك بعد أن يقطع مسافة بعيدة مشياً على الأقدام يسعى إلـى أستاذه فهو دائماً بحاجة إليه.. ولا يمل أن يكون بجواره فى كـل وقـت.. فكان يوم الجمعة من كل أسبوع أسعد أيامه عندما يصحو مبكراً يستعد للقاء أستاذه وقضاء يوم بأكمله يصحبه.. فهو أسعد أطفـال العـالم.. يصاحبـه أستاذه الأب.. الأخ.. الصديق.. والمعلم.. والجميع فى منزل ماجد.. عرفوا بهذا الموعد الحادية عشر يدق الباب.. إنه محمد..

وكثيراً ما يصحبه ماجد فى رحلة قصـيرة يطوفـون فيـها شـوارع المدينة.. ومحمد لا يكف عن طرح الأسئلة.. وماجد يجيب عنها محاولاً أن يشبع فيه فضوله وحاجته للمعرفة..

مرة سأل محمد: ما هذه الأسلاك الممتدة على أطراف مدينتنا..؟ لماذا وضعت..؟ ومن الذى قام بوضعها..؟ وهل العالم نهايته هنا.. عند هذه الأسلاك..؟ ولو كان هناك عالم آخر هل يشبه عالمنا.. يشبه بلدتنا البعيدة..؟!!

صمت ماجد.. وفكر ماذا ستكون الإجابة.. وكيف يبدأ.. ومن أين..؟؟

اسمع يا محمد! ما بعد السلك أهل لنا أيضاً وأقارب.. العالم هناك هو عالمنا وبلدتنا البعيدة.. وما بعد الأسلاك بلاد بعيدة أيضاً.. فى فلسطين بلاد تزرع الزيتون وشجر الياسمين وعناقيد العنب.. هناك الجدود يحكون أيضاً حكايات تشبه حكاياتنا.. هناك مدرسة بعيدة وبعدها مدرسة أبعد منها أيضاً يتعلم فيها الأولاد حروف تشبه حروفنا.. ويتعلمون الكلمة لتصبح جملة فى حب وطننا هذا.. وبلا حدود.. أنت يا محمد.. وخليل.. وجهاد.. سأعلمكم كيف تنزعون الأسلاك من مكانها.. وكيف ترسمون وطناً بلا حدود..

وقاطعه محمد قائلاً:

- ولم لا نقوم برفع هذه الأسلاك يا أستاذ أنت وباقى مدرسينا وأهلنا..؟

- الآن نحن لا نستطيع أن نرفعها.. ولكن الأمل فيكم أنتم أن تنتزعوها..

- أستاذ! إن ثقتك بى كبيرة أنا وباقى أخوتى وزملائى.. وما تطلبه وتتمناه أراه قريباً.. سيتحقق.. بل قلبى يدفعنى إلى السعى أنا وزملائى لتحقيقه.. لنزور المدارس البعيدة.. ونسمع حكايات تشبه لحكاياتنا.. ونرسم وطناً بلا حدود..

واسترسل محمد.. وقال:

- كثيراً ما شاهدت يا أستاذى أطفالاً يقتربون من هذا السلك.. ويبكون لأنهم يريدون أن يعبروا ولا يستطيعون..

- هم يبكون لأنهم لا يعرفون.. ولكنك تعرف الآن يا محمد.. ويوم أن عرفت يوم أن نبدأ سوياً الطريق..

إلى أن جاء يوم لم يكن فى حسابات الأستاذ ماجد ولا حسابات محمد.. إذ تم اختيار ماجد للسفر للخارج ليعمل فى حقل التدريس.. ويواصل رسالته وينشرها خارج حدود وطنه.. هناك هدف يدور فى تفكيره.. نشر القضية لنقطة أبعد من حدود هذا الوطن.. وإشعال أول شرارة للمقاومة من الخارج.. وتكوين النواة فى خليتها بدأ فى تحضير لوازم السفر مع حزن يخيم عليه.. كيف يسافر ويترك محمداً بعدما أصبح جزءاً من حياته فى مشواره ومع طلوع كل شمس.. يسافر ويترك جزءاً غالياً فى وطنه..

دخل على أمه وهى ساهمة شاردة.. فهى أيضاً حزينة لسفر ماجد.. إذ قال لها:

- أماه! أريدك أن تساعدينى بكيفية إخبار محمد بسفرى.. فأنا تعبت من التفكير ولم أجد أحداً يقوم بهذا الدور غيرك أنتِ.. فأنتِ الأم الودود المحبة لنا جميعاً.. وأنتِ أحببته كما أحببتِ أبناءك.

- يا بنى! سافر.. صحبتك السلامة.. واترك لى موضوع محمد.. ففراقك يؤلمنا جميعاً.. ولكن ما باليد حيلة..

ودق باب البيت.. وكانت هى دقات محمد.. وقامت أم ماجد لتفتح الباب وتدخله فى غرفة الاستقبال كعادتها فى كل يوم جمعة..

أخذ محمد مكانه كما اعتاد.. وطال انتظاره وعيناه تبحثان فـــى كـــل مكان.. وكأن قلبه الصغير يحدثه.. فمع كل صوت قـــادم ينظـــر محمـــد مصدره عسى أن يكون ماجد فاتحاً للباب كعادته.. يلقى عليه تحية الصبـــاح فى بشر وسعادة قائلاً: أهلاً أهلاً بك يا محمد!

ولكن هذا اليوم يخيم هدوء غير عـــادى.. حضـــر الجميـــع لصالـــة الاستقبال.. والكل ينظر إليه.. ويتبادلون نظرات لم يعتدها.. وارتسم القلـــق على وجهه الصغير.. وقطع الصمت بسؤاله: خالتى! أين الأستاذ ماجد..؟

وبطريقة سريعة ردت الأم وكأنها تذكرت الوعد الذى وعدته لولديـــها بأنها ستتولى إخبار محمد بسفره بالطريقة المناسبة.. فحزن محمد لرحيـــل ولدها لن يكون أشد من حزنها.. لكن ماجد لم يرتض الســـفر إلا بعـــد أن اطمأن أن والدته ستقوم بدورها المكلفة به..

قالت: محمد! ماجد سافر صباح هذا اليوم..

ولم تكمل باقى جملتها.. وإذ به يقف مسرعاً شارداً خائفاً مذعـــوراً.. ويصيح بأعلى صوته: ماجد! ماجد!

ملأت الدموع العيون وهو يعدو عبر ممر الحديقة كمن يطارد الريح.. يعدو وينادى فى صرخة دوت فى أرجاء المدينة.. أين ذهبت يا مـــاجد..؟ تركتنى هنا بدونك أعيش..

دوت الصرخة فى أرجاء المكان.. هزت قلوب الجيران والأهل.. فلـــم يحتمل قلبه الصغير فراق ماجد.. فنبضات قلبه صرخـــت معـــه.. ودوت الصرخة أنحاء المدينة حتى انتهت إلى المدرسة البعيـــدة.. دوت صرخـــة حزناً وكمداً على غياب ماجد.. وكانت هذه الصرخة عنواناً لنهاية الأســـتاذ

ماجد.. فماجد يوم رحل عن المدينة البعيدة لم يعد إليها مرة أخرى.. وقـــد كان كما قال الشاعر "**محمود درويش**" صديق ماجد:

يحكون في بلادنا..

يحكون في شجن

عن صاحبي الذي مضى

وعاد في كفن

مضى ماجد وكانت رحلته طويلة مع الغياب.. ويوم عاد، عاد في كفن من أرض المنفى.. ويوم صرخ محمد بأعلى صوتـــه.. مـــاجد.. كـــانت صرخة الوداع دون لقاء.. كان يعدو وكأنه يحاول أن يمنـــع القـــدر مـــن اغتيال ماجد.. ولكن دون جدوى..

ذهب محمد..

ويوم مضى ماجد لم يعد محمد إلى بيتنا مرة أخرى

ولم نره ولو لمرة واحدة.

# خلف الصورة

كعادتى من كل صباح أستيقظ مبكراً آخذة طريقى إلى النادى لممارسة الرياضة اليومية المعتادة كل يوم.. ودخلت المكان الذى أنطلق منه بعد تغيير ملابسى الخاصة بالمشى أو لعبة الجولف حسب الجدول الزمنى الذى أنظمه لنفسى..

وفى هذا اليوم التقيت بالأستاذ "**محمد حسنين هيكل**".. وهو نادراً ما يتواجد فى نادينا.. تقريباً أيام معدودة على مدار العام.. وكل من يعرف هذا ممن يقوم على مساعدته فى تحضير أدوات اللعبة من الحقبة الخاصة بها ومستلزمات أخرى.. والرجل الذى يلازم اللاعب أثناء سيره.. كل هؤلاء لمست فيهم الحب الشديد له.. وانتظاره بفارغ الصبر عندما يحدد موعده لممارسة اللعبة.. ينتظرونه بحب كل يوم.. وبحب أكبر عند غياب سنة كاملة.. ويأتى الصيف.. وبقدومه تقترب المسافات.. ويأتى السيد هيكل إلى نادينا والكل سعيد بقدومه سعادة من القلب فعلاً..

حتى أنا عندما تقابلت معه شعرت بأننى أعرفه من زمن.. وأنا فعلاً أعرفه من زمن.. ومقالاته وأفكاره موجودة فى بيتى.. كلما أردت أن أعرف له رأياً واتجاهاً التجأت إلى كتبه وكأن هناك حواراً يدور بينى

وبينه.. بل الحوار يتسع ليضم الملايين من القراء للسيد هيكل من مشـــارق الأرض ومغاربها..

هيكل الصحفى بعظمته هو هيكل الإنسان.. فما سمعت عنـــه زادنـــى إعجاباً به.. فهذه الشخصية ببريقها من على البعـــد ذادت توهجـــاً عندمـــا اقتربت منها.. ولمست فيه هيكل الإنسان.. يشعر بآلام الناس ومعاناتـــهم.. وهو لا يكتفى بهذا.. بل يمد اليد ليمسح دمعة حزن.. ويضيـــف ابتســـامة على وجه إنسان.. ابتسامة يرسمها بيديه..

وفى صباح يوم مقابلتى له تعمدت أن أمشى معه وأشاهده وهو يمارس لعبته المفضلة.. تحدثنا بكلمات بسيطة.. ومررنا بعدة أشخاص ألقينا عليـهم التحية.. واستوقفنا أثناء مرورنا رجل أعرفه شكلاً مع مـــرورى اليومـــى فألقى تحية الصباح للسيد هيكل بكل حب واحترام مع إضافة بسيطة بطلـب يبدو بسيطاً كان يلمح به للسيد هيكل.. وأجابه بأن ما يطلبه لـــم يحضـــره معه.. ووعده بإحضاره فى مرة قادمة.. أنا لم أعر بالاً لهذا الحوار.. بـــل واصلنا السير.. واستأذنت منه لأكمل طريقى.. ويواصل هو طريقـــه فـــى الأرض كالمعتاد..

وفى اليوم التالى استوقفنى هذا الرجل وسألته بنوع من الفضول:

- ما الطلب الذى كنت تطلبه من السيد هيكل..؟

- كنت أسأله كتاباً..

وخال لى أنه يطلب الكتاب لشخص يعرفه طلبه منه.. ولكنه فاجـــأنى برده عندما أخبرنى أنه يطلب (خريف الغضب) لنفسه.. فقلت له:

- أنت تريد أن تقرأ خريف الغضب..؟!

- نعم.. الكتب ثمنها باهظ يا سيدتى.. وأنا لا أقدر على شـــرائها.. والسيد هيكل قدم لى العديد منها.. وأمتعنى بقراءتها.. وهذه ليست هى المرة الأولى التى أطلب منه مثل هذا الطلب..

حب القراءة وبالذات لكاتبنا الصحفى الكبير ليس بغريب علينـــا نحـــن القراء.. ولكن ما أثار دهشتى أن أجد قارئاً لهيكل يمسك بالخرطوم كل يوم من كل صباح ويقف حافى القدمين يروى الأرض الخضراء لتزداد حضـوة وجمالاً.. ويعتنى بها بطريقة تكـــاد تكـــون يوميـــة.. وازدادت دهشـــتى الممزوجة بالحيرة لما أراه وأسمعه..!

- لماذا تبحث عن هذا الكتاب بالذات لتقرأه..؟

- هذا الكتاب يروى فيه السيد هيكل حقائق من تجربة حية عاشـــها.. وأنا سمعت عنه الكثير.. لذلك أحب أن أقرأه.. وعندى الفضـــول لذلك..

فى هذه اللحظة بالذات بدأت أتحاور معه من قارئة إلى قارئ مثلـــى.. ذابت الفوارق بين ساقى الزهور وبينـــى أنـــا الحاصلـــة علـــى ليســـانس الحقوق..!

وتواصلت الأسئلة تباعاً:

- هل لديك مؤهل علمى..؟

وبثقة كاملة أجابنى:

- أنا لم احصل على أى درجة علمية.. أنا أحـــب القـــراءة.. بـــل أعشقها..

واستدار ليشير بيده لمكان يقع خلفنا وقال:

- فى هذا الكشك الخشبى أقضى أغلب وقتـــى فـــى القـــراءة فـــى مواضيع كثيرة.

وأستكمل حديثه معى تملأُه السعادة.. مزهواً بنفسه.. يقول لى إنه حمل حقيبة الجولف للسيد هيكل قبل ذلك ودارت حوارات عديدة بينهما.. وتحدثـا فيها عن الصحافة.. وكيف يحيد البعض مـــن الصحفييـــن عـــن الاتجـــاه الصحيح للوصول إلى أعلى المراكز.. وأيدنى فى الـــرأى أن هـــذا ضـــد مفهوم الصحافة وشرف مهنتها..

وقلت له متعجبة: هل أدرت هذا الحوار مع السيد هيكل..؟!!

كل هذا أثار دهشتى.. ولم أمنع نفسى أن اطلب منه اســـتعارة كتـــاب "خريف الغضب" لو حصل عليه.. وطمأنته أننى سأرده حال انتهائى منه..

أجابنى: أمرك يا سيدتى!

وسألته: كيف تحصل على الكتب التى تقرأها..؟

قال: من بائع "الروبابكيا"

وجدت نفسى أطلب منه أن يأتى لى بالكتب لـــو وجدهـــا.. وأعطيتـــه أسماء البعض منها غير المتوافر لى فى المكتبات عسى أن يحالفنى الحـــظ ويجدها..

هنا تركته وتابعت سيرى.. وفى رأسى ألف فكرة وفكرة.. كيف لـــهذا الشخص ساقى الأرض بسيط الهندام والملامح لا يوحى لمن يمر بطريقـــه بأى معنى آخر غير الشكل الذى هو عليه..!!

# دمعة مصرية

**(إلى أخى ماجد أبو شرار)**

دائماً يدفعنى الحنين إلى كل ما هو مصرى...

أحببت أرضاً شق النيل شريان الود والحب والوفاء فيها..

يدفعنى هذا الحب إلى التدقيق فى جوانب الحياة على هذه الأرض..

يوم سافرت وبعدت عنها غلبنى حنين لم ينقطع أبداً إليها..

بالرغم من البعد وطول المسافات تقابلت مع مصرى بطريق المصادفة.. أسرنى بقصة رواها لى.. قصة عاشها بلحظات حاسمة عن أعز الناس لى.. قصة حب دام عشرين عاماً بينه وبين أخى الشهيد ماجد..

كان يروى ويحكى وأنا أستمع لقصة أثارت فى نفسى كل جوانب الفضول..

مصرى هو من جذور مصرية.. عاش فى أحضان الوادى.. تقابلت معه فى ردهة من ردهات أحد الفنادق بصحبة أناس لى معرفة بهم..

تعرف إلىّ.. وعرف أننى أخت لصديق غالٍ عزيز.. ماجد..

لقائى به كان مفاجأة له.. وانتحينا جانباً نأخذ أماكننا فى بهو الفندق.. وجدت نفسى محاطة بترحاب نابع من قلب كبير.. من رجل لم أعرفه قبل

هذا اليوم.. وكأنه عثر على ضالة بعد سنين اغتراب وألم..

ركزت ناظرى على هذا الرجل.. فهو فى العقد السادس على ما يبدو.. متعب النظرات.. مثقل الخطوات.. يشعل السيجارة تلو السيجارة.. وأنا كلى ترقب لكلمات بدأ يسرد من خلالها قصة مع أخى الغائب عن دنيانا منذ سنوات طويلة.. وأخذ معه قصة استشهاده ليلحق مع باقى قافلة المجاهدين..

يحكى لى قصة آخر لقاء كان بينه وبين أخى فى روما حيث سافرا معاً.. وعقدا العديد من المؤتمرات كانوا مشاركين فيها.. وأعدا برامج العمل فيها فتعصف بهم المناقشات بين مؤيد ومعارض.. وأوضاع سياسية مفروضة عليهم..

كان ماجد مقتلعاً من أرضه مثله مثل مئات بل آلاف..

قطع على نفسه العهد أن يبدأ رحلة الكفاح لأجل العودة.. العودة إلى حضن الأم.. إلى جبال الخليل التى ترعرع على سفوحها ووديانها..

لم ينس ماجد طوال سنوات البعد عن حضن الأم.. كيف يطل بعيونه ليلمح قمم جبال الخليل من أقرب نقطة من حدود الأردن.. ويمنى نفسه فى أن ينام بين كروم العنب فى بستانه الذى كان يفترش الأرض فيه وينام ليصحو على أصوات الجدة والأخت.. فيذهب إليهم ويقاسمهم العشاء.. زيت وزعتر ورغيف خبز فوق أرضه.. هذا هو حلم الفلسطينى الصغير ماجد..

عصفت به ليالى الاغتراب عن حضن الوطن الأم.. ولم يبرح باله شجرة تين أو غصن زيتون.. وظل يمنى نفسه فى ليلة يفترش فيها أرض

البستان في دورا الرابضة في أعلى قمم جبال الخليل..

بدأ الحبيب رحلة جهاد متواصل لا كلل ولا ملل.. قطع العهد أن لا يتراجع.. فإما أن يقضي كما قضى الآخرون.. أو يصل إلى الهدف ومنية النفس في العودة هناك..

حديثه عن أخي رجع بشريط عزيز في الذاكرة لا أنساه أبداً.. شريط في مشهد استشهاده واغتياله.. بدأ يسرد ويسترسل.. وأنا أعيش في الفرصة الذهبية في لقاء مع رجل عاش مع أخي آخر اللحظات مع آخر رحلة له..

رحلة أخرى إلى روما كانت ذهاباً دون عودة.. هناك سقطت شمسه في روما ولم تشرق في فلسطين ليومنا هذا.. ولم تعد طيور بلادنا تتناقل أخباره لسنابل القمح في وديان فلسطين..

قال لي: ودعته في روما عندما حانت عودتي قبل منه بيوم واحد متجهاً إلى بيروت.. وأقلعت طائرتي من مطار روما إلى بيروت.. وبمجرد الوصول أخذت أنهي إجراءات دخولي إلى بيروت.. كان في انتظاري خارج أرض المطار السائق الخاص بي كالمعتاد في جميع رحلاتي..

دلفت خارجاً فاستقبلني على غير عادته هذه المرة.. غابت الابتسامة عن ملامح وجهه.. وجدته واجماً مطرقاً حتى كاد الحزن يشل من حركته وهو يستلم حقائبي ويضعها في مؤخرة السيارة.. أثارني هذا المشهد غير المعتاد منه فوقفت مندهشاً أحاول أن أجد تفسيراً لما أراه اليوم..

بدأ القلق يتسرب إلى نفسي.. يملأ جوانحها.. ومن شدة قلقي خفت من

السؤال فأصدم نفسي بنفسي لشئ أخافه ولا أعرفه..

استكنت على طول الطريق.. والقلب يحدثني.. والعين لا تُكذب ما أراه وأشعر به.. وعيناي شاخصتان في الفضاء.. لا أرى إلا غمامـــة ســوداء بدأت تقترب مني لتقتلني..

فبات الطريق طويلاً إلى أن وصلنا.. فترجلت من الســيارة لأنــزل.. فكان هو أسرع مني في حركته.. وقال لي بصوت مختنق ومحتبس: عفــواً سيدى! أرجو أن تبقى مكانك في السيارة..!

وقفل بابي مرة أخرى.. استبقيت نفسي.. وجحظــت عينـــاى أكــثر.. واستسلمت له.. فما عسى أن يكون وراءه..؟؟

– سيدى! لقد رحل ماجد..!!

كل هذه التفاصيل كان يرويها الرجل المصرى.. وما إن وصـــل إلـــى حدود النهاية لحظة وصول السيارة وتوقف سائقها ليخبره برحيـــل حبيبـــه وصديقه ماجد حتى دمعت عيناى.. وانهالت دموع الوفاء عـــبر عشـــرين عاماً مضت على رحيل أخي.. دموع فاضت على وجنتيه المتعبتين.. ابـــن النيل الخالد فمنه نبع الوفاء الأبدى الذى لم يجف أبداً في قلب ونبض هـــذا المصرى الأصيل..

وكانت لي وقفة لأكتب في دمعة مصرية ومن دمعة مصرية..

سألت نفسي ألف سؤال: ماذا عساه يكون أخي الراحل مـــن عشـــرين عاماً..؟.. فشهيدنا لم ننساه أبداً ما حيينا.. ولكن لا زال يعيش فـــي قلـــوب رجال ونساء وشيوخ.. حتى على ضفاف الوادى الحزين على الراحليـــن.. لم يكف يذكرهم وتذرف العين دمعة وفاء من عيون وقلوب مصرية..

فأى ثائر أنت يا ماجد..؟

أى بصمة نقشتها فى ضمائرنا..؟

أى خلد هذا الذى خلدت نفسك فيه فى كل سنة تمضى على رحيلك..

وكما قال شاعرنا "محمود درويش" فى رحيل أخى:

**صديقى**

**أخى**

**يا حبيبى الأخير**

**أما كان من حقنا أن ننام ككل القطط على ظل حائط**

**أما كان من حقنا أن نطير ككل الطيور إلى تينة مترية**

وكما قال شاعرنا الراحل "معين بسيسو" فى رحيل ماجد:

**أهذا أوان الرحيل..؟!**

**وكل الخيول الجميلة ترحل مسرعةً فى الطريق الطويل**

**هو الموت لا يعرف المستحيل**

**سلامٌ عليك**

**سلام العصافير حبلى بتين الخليل**

# الهدية

كان لقاء.. سبقته محادثة تليفونية.. فموعد..

بتُ ليلتى منتظرة قدوم الغد لأكون فى موعدى فى المكان المحدد له..

دخلت المكان حاملة حقيبتى وأوراقى تسكنها كلماتى.. كنت أتوق أن أسلمه إياها لأسمع الرأى فيما أكتبه.. تأخر عن موعده فجلست أنتظر.. وأتصفح الجريدة لحين قدومه.. ناظرة لساعة يدى بين دقيقة وأخرى.. ولم يمهلنى طويلاً.. وهاهو داخل مكتبه.. وما إن شاهدنى جالسة حتى هم بمصافحتى بحرارة وود.. ورحب بى فى الجلوس..

فى اللحظات الأولى من اللقاء غالبنى الحياء من كل شئ.. حتى من كيفية البداية فى الحديث معه.. فكنت مستمعة فى البداية أكثر من متحدثة.. محاولة أن أطالع ما يدور فى أفكاره.. وأتمعن كلماته وأغوص فيها..

هذا الإنسان تقابلت معه منذ أكثر من سنة.. وكان الوقت لا يسمح بالحديث معه والاسترسال فى القريب البعيد.. فلقائى به كان فى أرض بعيدة.. جميعنا كنا فى مهمة وان اختلفت أشكالها..

فلم تدعنا الظروف فى حينها فرصة التعرف عــن قــرب ولكــن لمحات من الشخصية كانت واضحة جلية بالنسبة لى.. كــانت كافيــة لأقول فيه كلمات صادقة ليست بعيدة عنه..

رجل طيب الخلق يشع الهدوء من عينيه ونبرات صوتــه هادئــة رصينة..

وأذكر يومها كم كنت سعيداً حين بادر وطلب منى على اســتحياء مساعدة فى شراء حاجياته لزوجته.. يعود بها إليــها فتســعد ويفــرح قلبها..

حقيقة غالبنى شعور بالفرح.. وكان يلازمنى فى جميع الأركــان والأمكنة.. وترك لى الحرية المطلقة فى الاختيــار.. وبيــن الوقــت والآخر يردد كلماته لى أرجو أن لا أكون قد أثقلت عليك فيما طلبتــه منك.. وأرجوك منك أن لا تحتارى فى ثمن الأشياء فأى ما كان ثمنــها لا يهمنى.. المهم أن ينال إعجاب زوجتى..

كانت كلماته العبرة هذه تسعدنى جداً.. ممــا زاد إعجــابى بــهذه الشخصية التى لم ألتق بها إلا فى هذا البلد.. ولأول مرة.. كلنا غربــاء فيها.. وكل منا يسارع ليفى بحاجات أرادها معه.. ليعــود بــها إلــى أحبائه أو أرادها لنفسه..

وأسأل نفسى: ما هذا الرجل الذى لم أشاهده يشترى لنفسه شــيئاً.. بل كل ما أراده إرضاء الزوجة الغائبة البعيدة.. يحمل إليــها الــهدايا رغم قلة خبرته فى شراء الحاجيات النسائية.. كان يستطيع وهى تعلــم لو أخبرها أنه لم يقدر أن يشترى شيئاً لعدم درايته فى هذه الأمــور..

لكنه لم يستسلم لذلك.. بل حاول أن يفتش عن شخص ما في هذه الرحلة يقدر أن يقوم بهذه المهمة.. ووقع اختياره عليّ أنا.. يا للمفارقات! ولم أنا بالذات..؟ أنا لم آخذ هذا الموقف بعفوية عادية.. سيدة طلب منها شراء حاجيات لسيدة لا تعرفنى وزوجة رجل معرفتها به فى حدود رحلة. ووقتها ضيق ومحسوب..

ظل هذا الحدث يسكن فى أركان الذاكرة لدى.. حتى أننى فى حديثى مع بعض الأصدقاء تناقشنا فى علاقة الرجل بالمرأة.. وهذا النقاش على الدوام فيه إثراء ومادة غنية لدرجة أن الوقت ينتهى والحديث فيه لا نهاية له..

فى الحال كان أمامى هذا المشهد فذكرته وأنا أرويه بتفاصيله مستشهدة بهذا الرجل الطيب.. كريم النفس.. وكيف لى برجل فى زمنى هذا يفضل الزوجة والأبناء وفى البعد عن نفسه..؟؟

أنا كنت فى هذه الرحلة بصحبة زوجى.. ومن يوم وصولنا وهو يصحبنى معه من طلوع الشمس إلى ما بعد غروبها.. إلى ما يقرب منتصف الليل.. أنتقى له أشياءه بنفسى.. كل الأشياء.. كل الأشياء له.. لدرجة أن حرمنى النظر إلى حاجيات النساء.. يريدنى النظر إلى كل شئ يخص الرجال.. عطور وأحذية.. بدل.. قمصان.. كل ما يخص الرجال.. وما يخصنى أنا لا يعلم عنه شيئاً.. ولا يريد العلم به.. وأنا فى قمة معاناتى وصبرى حتى جاءنى هذا الشعاع المضئ.. إنه هو ذلك الرجل.. كان الشعاع الذى أضاء الأمل فى نفسى بأنه هناك من الرجال من يفكر بالمرأة البعيدة وما تحبه وما تريده..

وهنا رجل من طراز آخر مختلف.. يفكر في نفسه ثـــم نفســه.. وزوجته هي لنفسه.. وكثيراً ما يجتاحنى الإرهاق والألم.. فأفتش عـن مقعد لأستريح عليه بضع دقائق من الساعات التى أقف أو أسير فيـها.. وفجأة أجده يصرخ ويدور برأسه وعينه: أين أنـــتِ..؟! لمـــاذا أنــت هناك؟

وتعتلى نبراته بعبارات الضيق.. ويضيف لـــى كلماتـــه التـــى لا أنساها: أرجوك لا وقت لدينا لنضيعه.. الوقت ضيق جداً.. حـاولى أن تركزى أكثر معى لننته من شراء جميع لوازمى.. أنا كتبت لـــك فـــى ورقة كل الأشياء التى احتاجها راجعيها واقرئيها وعلمى بعلامات على الحاجيات التى لم يتم شراؤها بعد.. رباه اعطنى القوة والتحمل.. دعاء يسكن القلب أردده دوماً.. وها أنا ذى أحاول النهوض متثاقلة متحاملـة على نفسى.. فأشعر بقدمي قد تورمتا من كثرة الوقـــوف والانتظـار الطويل أمام غرفة القياس لأختار لون البدلة.. أو الفتحة تكون جانبيـــة أو من الخلف.. وربطة عنق وردية أم خالية من الورود.. ذات بريـــق يعكس كل الألوان.. وحان وقت لأستريح بركوبى السيارة متوجهة إلى الفندق.. أخيراً أنا على باب حجرتى لأرمى جســـدى المنـــهك علـــى السرير إلى الصباح.. هذا هو حلمى الصغير الـــذى راودنـــى أثنـــاء ركوبى فى السيارة.. وما كدت أصل حاملة الأكياس الكبير والصغـــير حتى بادرنى بطلب آخر.. أن أضع الأشياء وأرتبها فى الحقائب.. وأنـــا بدورى مطيعة ساكنة هادئة.. حتى أننى فى شدة تعبى لا أقوى علـــى الحديث.. أخذت فى ترتيب حاجياته حتى أخذت تعلو شيئاً فشـيئاً فـــى

الحقيبة حتى بدا لى أنه من الصعب إقفالها.. حقيبتـــان امتلأتـــا علـــى آخرهما.. أما حقيبتى انا فلقد أخذت ركناً فى الغرفة تعلن عن حزنـــها لأننى لم أقترب منها منذ وصولى إلى دبى.. ولم أفتح فيها جرابـــاً أو جيباً.. وظلت تطوى حزنها حتى أقفلها يوم سفرى.. ورجعـــت بـــها خاوية إلا من بعض أشيائى القديمة التى جئت بها.. فى غرفتنـــا فـــى الفندق تقصر المسافات ويسهل النظر إلى الأشياء والتدقيـــق والتـــأمل فيها.. هو كان فى حيرة كيف له أن يقفل حقائبه مـــن الشـــمال إلـــى اليمين.. مرة يضغط بكلتا يديه.. ومرة يجلس فوقها.. ويطلـــب منـــى القيام بشد أقفالها حتى كادت أنفاسه تتقطع.. وما إن انتهى وهدأ قليلاً.. هام بنظره يميناً وشمالاً.. فكل شئ قد انتهى وعلى ما يرام.. قال لـــى: أنا حزين جداً..!!

قلت: حزين؟ لماذا؟

– لم أشتر لأبنائى شـــيئاً.. أرجـــوكِ حـــاولى أن تتصرفـــى بـــهذا الموضوع..!!

– وكيف لى هذا وباق على إقلاع الطائرة ست ســـاعات.. واليـــوم الجمعة وغالبية المحلات مغلقة اليوم..؟

وأشاح بوجهه فى حيرة لا أعرف إذا كانت مصطنعة أم أنه أفـــاق على شئ من بديهيات الحياة وأسس تكوينها.. عندما يولد الأبناء يموت الآباء..

وسألنى سؤالاً دهشت له: أرجوكِ.. كيف يجـــد أبنـــائى حقـــائبى ممتلئة بحاجيات تخصنى أنا ولم أشتر لهم شيئاً..؟!

أخذ يردد وبسرعة كلماته دون أن يتوقف أو حتى يضع فواصل لكلماته.. فمن الجائز لو وضع الفواصل يذكرني بين الحروف والكلمات.. يذكر الزوجة التى لازمته من بداية الرحلة إلى نهايتها.. ولكن العزاء فى القلب كان عند لقائى بهذا الرجل.. وأن هناك على الأرض التى نعيش عليها نوعاً آخر من الرجال غير ما أراه اليوم وأعيشه من سنوات طويلة.. فى رحلتى هذه حملت ذكرى لتجربة على النقيض.. تراودنى دائماً وأذكرها فى مجالس الحديث وأثبت الواقعين فيها.. فكما نسمع هنا وهناك ونرى أناساً مختلفين مثل أستاذ محمود الصحفى البسيط.. عصامى مجاهد لأجل الحياة والأبناء والأسرة..

مرت الأيام والشهور.. وأخذتنى بين طياتها وأنا غارقة فيها بين آباء وزوج من طراز أشرت لجزئيه من شخصية يتمتع بها.. تعرجت بى الدروب.. ضاقت حيناً.. واتسعت حيناً آخر.. وأنا أحاول أن أحيا فيها بأى صورة أرتضيها لنفسى.. مرة أرتضى الرحيل والبعد.. فتعتصرنى آلام الفراق لأبنائى وأعود.. وبعد أن احط رحالى أهم بالرحيل مرة أخرى.. رحيل لا أعرف له موعداً للرجوع.. يوم عدت بعد غياب طويل مزق فيه الغياب نفسى كان لأكثر من سبعة شهور.. وأنا التى لم تفارق أبناءها طيلة حياتى معهم أكثر من أسبوع.. واليوم عدت.. دخلت غرفة أصغر أبنائى فاستسلمت لبكاء مرير.. بكاء فواق وشوق وألم.. فما أصعب البعد عن حضن الأبناء المحتاجين.. فلا زالت الأجنحة عاجزة عن أن تطير.. ولا زلت أنا الظل إلى يستظلون به.. وبت لا أمل النظر لعقارب الساعة.. وأدعو أن تسرع بى

وبالزمن ليكبر الصغير ويعرف كيف يسلك الدروب.. وأهدأ أنا ويسكن قلبي السلام بعد قلق السنين وغربة الأيام عني..

وها أنا ذي أجلس في مكتب الأستاذ محمود.. فلم أحسب يوماً أن نتقابل بهذا الشكل.. أتقابل وأنا أحمل كلماتي المبعثرة في قصص حملت معها معاناتي.. جئت إليه أبحث عنده عما افتقدته في داخلي.. عساه يستطيع أن يقدم لي ما أبحث عنه ولا أعرفه.. هذه الزيارة كانت التجربة الأولى لي في حياتي من جوانبها المختلفة.. من لحظة اتصالي به في مكتبه والسؤال عنه.. ثم أخذ موعد والذهاب إليه.. وألف سؤال وسؤال يطل من رأسي أريد له إجابة..

لكنه ببساطة وسماحة كلماته أذابت الكثير من الحرج في نفسي.. وأخذ يحكي لي ما حدث في دبي وكم هو مقدر لما قدمته له.. يحكي وهو لا يدري أنني كنت أسعد حالاً منه لما قدمه هو لي.. لقائي به أشاع السرور والبهجة في نفسي.. كان رجلاً محدداً وبسيطاً في كل شئ.. ووعدني أنه لن يتوان في أن يقدم لي ما يستطيع..

وقد كان..

وتقابلنا في لقاء آخر كان قد رتب له مسبقاً مع كاتب من الكتاب الذين أمتعوه على مر سنوات طويلة في أعمال كانت كما قال لي تجذبه من الأعماق.. فيسترسل في قراءتها.. كان في انتظاري على مدخل النادي في الموعد المحدد.. ويوم التقيت به كان بصحبة ولده أحمد.. عرفني به شاباً يافعاً في الثامن عشرة ربيعاً.. هادئ الملامح كوالده.. بادر بتقديمي له.. ومشينا حيث المكان المتفق عليه.. فكاتبنا

على موعد معنا.. وعلى امتداد البصر كان يأخذ ركناً فـــى النـــادى.. اتجهنا ثلاثتنا نحوه وأنا كلى فضول لهذه الشخصية التى سأتقابل معـــها لأول مرة..

لم يلفت انتباهى فيه شئ ما.. فكل الأمور تسير بطريقة طبيعيـــة.. تعارفنا وجلسنا وتحدثنا.. وأخذ أوراقى بطريقة سريعة مـــن أمامـــه.. وها هى تستقر بين يديه.. يطالعها ويتفحص كلماتى فيها من أولها إلـــى آخرها.. وخيم علينا صمت ممزوج بالانتظار.. فالانتظار ليس غريبـــاً عنى.. سنوات طويلة وأنا أنتظر.. ولكن اليوم.. وهذه الساعة.. أتـــوق لسماع كلمة آخذها طريقاً وأسير عليها.. والأستاذ محمود كان يســـترق النظر إليه بين الحين والحين.. وأنا غارقة فى أفكارى.. أود أن يســـمع أستاذى كلمة فيّ أنا.. وأكون كما يريد لى أو كما يحدثه حدسه الفنـــى الذى يتمتع به.. وهل أستطيع الوصول كما هذا الرجل الذى أمـــامى.. فله روايات عديدة أمتعت الأستاذ محمود..؟ وهل يكون لى مثل كاتبنـــا وأكتب يوماً ويقرأ لى الأستاذ فلان.. وفلان..؟

وما كدت أنتهى من أفكارى هذه حتى انتهت رواياتى وقصصـــى.. وبدت خطوط نهاياتها عندما وضعها على الطاولة أمامه.. وأنا أركـــز النظر على ملامح وجهه.. وأخذ يسأل وأنا أجيب.. وسؤال يتردد فـــى داخلى: هل لدى الموهبة والقدرة..؟ ســـألته.. فأجـــابنى بنعـــم لديـــك الموهبة.. فكانت هذه الشهادة الأولى فى مرحلة البداية..

وتنفس الأستاذ محمود الصعداء.. وأحسست بسعادة تغمـــره مـــن داخله.. فمن أتى بها ممكن أن تكون شيئاً على الدرب الطويل.. قـــال

لى مرة ومرات: أنا صنعت نفسى بنفسى وحان الوقت لتبدئى وتصنعى نفسك بنفسك.. فالطريق ليس سهلاً يسيراً..

تجاذبنا أطراف الحديث.. وإذ بكاتبنا يناولنا لفافة بيضاء فيها ثلاث روايات له هم آخر ما كتب.. ثلاث نسخ من رواية "كف مريم".. مد الأستاذ محمود يده ليلتقط الرواية.. وسأل: أين الإهداء يا أستاذ سعيد.. فأنا لم أعتد أخذ رواية لك دون أن تكتب لى فيها كلمة..؟

لم يتردد كاتبنا وأخذ يكتب إهداء للأستاذ محمود.. وبالتالى لى.. وكان هذا أول إهداء يكتب لى على رواية من صاحبها وكاتبها..

انتهى اللقاء الممتع.. سارعت للعودة إلى بيتى وفى يدى "كف مريم".. وبين الحين والحين أفتح حقيبتى وأخرج الرواية لأقرأ عنوانها.. وأفتح الكتاب لأقرأ الإهداء أيضاً مرة أخرى.. فما أسعدنى اليوم لقاء كان على كلمات كتبتها لا أعرف شرقها من غربها.. كاتبنا جمعها بكلتا يديه وقال لى: أنتِ لديك الموهبة..

فكل كلماتى وكل ما أكتبه بعيداً قريباً سكن خلف كلماته لى.. أخذتها منه وانطلقت عبر السحب وسافرت فى دخان الأرض بعيداً.. بعيداً.. لأقترب منها من جديد.. وأكتب وأكتب على طريق طويل.. ولكن السير فيه له بداية واضحة المعالم وضع حروفه كاتبنا الكبير..

وصلت منزلى وحقيبتى على كتفى وفيها "كف مريم".. سأعيش معها وأتعرف على أستاذى.. وأعيش اللحظات الممتعة التى وصفها لى الأستاذ محمود وهو يقرأ ما يكتبه كاتبنا.. أحببت أن أعيش هذه اللحظات.. وكيف أمسك بالرواية ولا أتركها إلا عندما تنتهى آخر

ورقة فيها.. وقد كان ما تحدث به إليّ الأستاذ محمود.. عشته ووجته حقيقة مع أوراق "كف مريم".. قرأت.. دققت.. فتشت فيها.. وكنت أرجع بالصفحات لأعرف مقصد كاتبها وما يكمن وراء روايته هذه.. حتى امتزج الفن بين ما كتبه كاتبنا وما قاله الأستاذ محمود حتى أصبحا معنى واحد فى نفس كف مريم.. كلمات كتب فيها الأستاذ سعيد.. وكف الأستاذ محمود ممتدة لى مليئة بعطاء وحب افتقدته طويلاً.. فكل منا له فى نفس الآخر هدية واعتراف بمعان جميلة أضافها إليه..

أمسكت سماعة التليفون.. وأدرت القرص لأطلب الأستاذ محمود.. وخيل لى أنه كاتب لرواية كف مريم..

- هل قرأت الرواية..؟
- نعم.. وأنت..؟
- نعم.. عن آخرها
- وما رأيك..؟
- وما رأيك أنت..؟

تلاحقنا بالأسئلة العديدة من زوايا مختلفة.. وبعدما تملكتنا حيرة فيما نحن فيه لا ينفع تليفون.. بل لقاء يحضره كاتبنا الأستاذ سعيد.. نعم.. هذا حل سليم.. وسألنى الأستاذ محمود: هل ذهبت للندوة بالأمس الخاصة بكتاب القصة كما اتفقت معك أنا والأستاذ سعيد..؟.. توقفت لثوان.. لم أذهب.. لماذا؟.. خيل لى أن ألتقى بك هناك وأجد قصصك مع الكتاب يتناولونها بالنقد.. وأنتِ تستمعين لهم.. حاورنى بلغة

العتاب.. عتاب يبنى فيه الجدار الذى يريده الأستاذ محمود لى.. أن يعلو طور البناء.. وبلغة العتاب الرقيقة تلعثمت الكلمات فى فمى.. وبت لا أستطيع الكلام.. لقد تغيبت عن مكان كان يجب أن أكون فيه ليكمل الأستاذ محمود ما يريده لى.. آسفة جداً.. آسفة.. أنا المرة القادمة.. كان درب من دروب الغباء فى كلماتى هذه.. هو لا يريد أن يسمع عبارت الأسف.. بل يريد أن يستشعر علو الجدران فى البناء.. لماذا ضياع كل هذا الوقت.. لا يا أستاذ لن أضيع.. لن أتوقف.. لا لن أعلن استسلامى.. فبالله كف مريم أم كف الأستاذ محمود.. كل الأكف معان أضمها فى الجدار الذى أتمنى أن يعلو ويعلن عن مولد طاقة تتفجر وتعلن عن مولد البداية لإنسان تصنع لنفسها مكاناً فى هذا العالم المتخبط وأكون كما أراد لى أستاذى.. وتكون الهدية التى يقدمها إلىَّ.. فكما قدمت فى دبى لك هدية قدمت أنت لى هناك الهدية ودون أن تدرى.. هدية أضاءت النفس المعتمة.. واليوم أنت تقدم لى الهدية وأى هدية يا أستاذى ومعلمى..!!

•••

اليوم هو الاثنين.. والساعة السابعة.. اندفعت مسرعة إلى الطريق المؤدى إلى هناك حيث ندوة الأسبوع التى تخلفت عنها الأسبوع الماضى وتحدث عنها كاتبنا..

الفضول يجتاحنى لأناس سأتقابل معهم لأول مرة..

ومن وقت لآخر أفتح مفكرتى لأتأكد من اسم ذكره لى كاتبنا لأننى أقصده هو فى ذات المكان..

وها هو الاسم فى مفكرتى والمكان قد وصلت إليه وحـان وقـت الدخول.. وحان وقت البداية كما قال لى الأستاذ محمود.. فها أنـا ذى قد أتيت لكم أخوتى فى القاعة.. أتيتكم من هناك حيث الأسـتاذ سـعيد والأستاذ محمود.. فيا عشاق الكلمة والفن أنا معكم الآن..

كلمات دارت فى فكرى وأنا أجلس آخذة مكانى فى الندوة المنعقـدة على قصة من قصص كاتبنا.. وجدت نفسى قد أتيت إلى عالم آخـر.. عالم الكلمة التى طالما أضنانى البحث والتفتيش عنها.. عـالم يلتـهم الأفكار والمعانى والكلمات ليصنع منها مغزى ومعنى لحياة يعيشـون فيها..

كان اللقاء ودياً وترحاب راق لى.. وأصبحت من هذه اللحظة مـن ضمن المجموعة.. كتاب الكلمة ومبدعيها..

جلست أنظرهم وأدقق ملامح وجوههم.. وخيل لى أنـهم جميعـاً الأستاذ محمود.. جميعهم صناع الفن.. يسيرون على طريقه الطويـل.. لم يتعبهم طول المسافات وغياب الزمن عنهم مرات ومرات..

مرت ساعة من الوقت تزخر بالحدث العظيم بالنسبة لى..

عدت إلى بيتى أحمل كلمات وقصة كتب فيها إهـداء آخـر لـى أضيف إلى الإهداء الأول من كاتبنا.. وأصبح عندى الزاد والـزواد.. وكانت البداية التى لمح بها الأستاذ محمود..

أدرت قرص التليفون مع بداية يوم جديد أفتش عن الأستاذ محمود وأقول له لقد كنت هناك.. وتكون كلماتى هذه المرة ثابتة مثلما الأرض التى أمشى عليها.. سمعت صوتاً عبر الأثير يجيبنى:

- الأستاذ لم يحضر لمكتبه هذا اليوم..

طمأنت نفسي بأنني سأتحدث معه وألتقي به ليكون لي معه حديث آخر ملئ بالأحداث التي يتمنى أن يسمعها عني.. حيث وجدت خطوطاً لبداية.. لن تنتهي أبداً..

# الانكسار

ها أنا ذى عائدة..

عائدة أحمل مرارتى بين جوانح قلبى.. وآهات تملأ صدرى..

عائدة أنا اليوم بين نار ورماد..

عائدة أعيش وحدتى التى هربت منها.. وعدت اليوم إليها..

عدت اليوم معاهدة نفسى أن أحبها وأعتاد عليها.. وأعيش فيها..

فتحت باب غرفتى.. كل شئ فيها شاهد عليه.. ستائر فيها لازالت تقف على نافذتى تطل علىّ وتشهد.. مرآتى وجدتها صامتـــة تعكـس جدران غرفتى الباهتة.. أشيائى مبعثرة هنا وهناك.. انحنيت ألملمـــها وألملم دموعى وأشلائى فيها.. فلازالت الكف مرفوعة تلملم.. ولازالت الأنفاس تتلاحق.. هنا على عتبة غرفتى.. كل شئ هنا يشهد.. كـــارت معايدة بُعث لى يوماً يسقط أمامى من فوق الجدار فقد كان معلقاً يسكن البعد.. كان يحاول مواساتى عندما كنت بعيدة..

فالوحدة أصبحت قريبة بعدما كانت بعيدة.. وهـــا هـــى تطوقنـــى بذراعيها.. وها أنا ذى مستسلمة لها.. أعلن لها عن انكسارى للمـــرة الألف..

ولكن.. هل هناك بقية..؟!

هل لازال للقلم مدد يكتب ويعلن عن مولد للأحلام فى ليالى الشتاء الباردة..؟!

هل بعد الانكسار يكون الانفجار..؟!

والصحوة.. هل من الوحدة التى تلمنى بين ذراعيها تولد الحيـــاة.. يولد أمل..؟!

تتفتح زهور الياسمين.. وتكتمل عناقيد اللؤلؤ..

ما أكثر ما أسأل.. وما أكثر ما أجيب..

ولكن يظل السؤال.. وتظل الإجابة فى كل نفس طالها الألم ومزق فيها الحلم..

# بيجه

يدق الأرض بقدميه بخطوات ثقيلة متحدية.. ماطاً رقبته إلى الأمام وكأنما فصلت رأسه عن جسده.. وعيناه تتحركان فى كل اتجاه تجوبان المكان الذى اعتاده على مدار أيام متوالية..

اعتاد أن يمشى هذا الطريق المؤدى إلى صالة الألعاب فى النادى التى تنحرف بزاوية جانبية بعيداً عن الزحام والتجمعات..

ويتردد على هذا المكان على مدار الأسبوع.. وما أن يدخلها حتى تسمع الأصوات آتية من جميع الفتحات من الصالة.. صرخات وحشية تعلن عن قدرته فى حمل الكيلوات.. ومع علو الصرخات تزيد الأحمال بصرخات منتصرة متحدية.. ورنين الحديد يئن عندما يلقى به فيوجع الأرض بضرباته المتلاحقة..

وها هو بيجه واقفاً ينتظره على باب الصالة..

بيجه أنهى عمله اليومى.. وقام بتنظيف المكان.. وأعاد الأسطوانات الحديدية الثقيلة إلى مكانها للعب بها مرة أخرى بعد بعثرتها فى أنحاء المكان من اللاعبين.. وقد يصل وزن القرص أو الأسطوانة إلى خمسين أو سبعين من الكيلوات.. ويقف بيجه ينظره

باحتراس شديد من لحظة دخوله الصالة متأهباً لما سوف يحدث اليـوم ككل يوم.. ينادى بأعلى صوته: واد يا بيجـه تعـال!.. ارفـع هـذه الأسطوانات معى.. ساعدنى فى تعليقها على الحامل لأرفعها وأريـك مدى القوة فى عضلات جسدى هذا..!!

وبيجه يرقبه كبالونة اكتملت على آخرها هواءً.. تكاد تنفجـر أو تطير فى فضاء الصالة..

يتقدم بيجه نحوه.. يرفع له الأحمال ويتركه لينوء بحملها.. وما أن يرفعها حتى يطيح بها أرضاً فتدوى رنيناً وأنيناً..

وما أن ينتهى بيجه حتى يبادره بصوته المتحشرج بأنفاسه اللاهثة: بيجه هيا.. لم تقف كالحمار المعتوه..؟!.. أنت غبى ابن غبيـة أيـها الملعون الشقى.. تقف تنظرنى كالأبله.. تحـرك معـى.. لا تـتركنى هكذا.. هات هذه.. وخذ هذه..!!

يتناول بيجه القطع الملقاة من هنا وهناك.. وما أن يبدأ بفرد قامتـه العملاقة حتى ينحنى مرة أخرى يلتقط مـا يلقـى بـه الرجـل مـن الأسطوانات الحديدية.. وهو لا يكف يمطره بالسباب: هات يـا ابـن الغبية.. أنت حمار وستعيش وتموت حِماراً.. تحرك معى.. هيا..!!

يتصبب العرق من جسد بيجه.. وتعلو أنفاسه تتخابط فى صـدره.. مرة يكتمها بغيظه.. ومرات يخرجها زفرات تمـوج وسـط رنـات أقراص الحديد فى أرض الصالة.. وبين الحين والحين ينظر لعقـارب ساعته..

الوقت مضى والرجل لا يكف صراخاً وسباباً.. وبانتهاء الوقـت

يمضى هذا الوحش ويلقى بفوطته التى تاكد تلامس وجه بيجه: اغسلها يا غبى.. وغداً فى نفس الموعد..!!

ويقف بيجه ممسكاً بالفوطة وأنامله تحترق من شدة غيظه.. فيضغط عليها بكل قوة غضباً وسخطاً.. وتزوغ عيناه فى المكان يحاكى الحوامل والأسطوانات.. ويلقى بالملامة والسؤال على نفسه..

ويمضى مولياً يلعن اليوم الذى أتى به إلى هذا المكان.. ويذكر أيام المعلم بوند الرجل الوحش الذى أمضى سنوات عمره فى هذا المكان وهو معه يلازمه إلى أن اشتد المرض بأبيه ليمكث فى البيت.. ويظل بيجه فى هذه الصالة مع الحوامل والأقراص الحديدية.. وما يلاقيه فيها على يد هذا الرجل..

ماذا عساه أن يقول لأبيه بعد أن تركه وبات وحيداً دونه..

ويوم حدثه فى الموضوع أجابه بكلمات سابحة من داخل جسد منهك ناء بالأحمال:

– أكل العيش يا بنى.. أنت تخدم لقمة العيش!

– أبى! لا أستطيع أن أتحمل..

ويكمل أبوه حديثه:

– فاكر يا بيجه لما كنت صبى حلاق.. كنت فنان فى قص الشعر.. ومقصك سريع.. واحتاروا رجالة الشارع يسموك إيه..؟! قالوا عنك فهد السرعة.. ولكنك صممت أن تلازمنى فى عملى داخل النادى لتساعدنى.. وهناك تغير كل شئ وأصبحوا ينادونك بيجه.. وكنتَ سعيداً بذلك..

- هذا عمر يا أبى
- لو أغضبته يجب أن تبادر وتعتذر له..!!

استشاط بيجه غيظاً وغضباً لكلمات أبيه.. وأمضى ليلة لم يغمض له جفن.. أمضاها متقلباً ذات اليمين وذات اليسار.. والرجل يخايله فى منامه.. يحسبه حقيقة.. وما يلبث أن يعتدل فى نومه ليهم به فلا يجد إلا خيوطاً من الظلال تغالبها خيوط النهار المتسحبة من خلال نافذة الغرفة.. وهاهو يستعد ككل يوم لهمه اليومى الذى يبدأ من على باب الصالة..

•••

مقعده الخشبى العريض ينتظره خاوياً..

جلس مشعلاً لفافة من سجائره.. وأخذ ينفث دخانها.. ويتابع حلقاتها.. ثم يلقى بنظرة على عقارب الساعة.. لقد اقترب موعد قدومه.. ليسمع دبيب أقدامه تقترب منه أكثر وأكثر.. وهو مع حلقات دخانه يلاحقها بنظراته إلى أن تذوب فى الفضاء العريض..

أفاقه صوت المتهيج: أيها الحمار! هل جئت..؟.. أتشرب السجائر هنا..؟.. كيف جرؤت على هذه الفعلة..؟

غرس بيجه نظره على لفافته المشتعلة لم يبارحها.. وتحركت قدماه تحت مقعده إلى أن وضع قدمه اليسرى على قدمه اليمنى.. وأخذ يطيل النظر أكثر فى لفافته ويأخذ نفساً عميقاً بطيئاً.. ثم يخرج الدخان حلقات من أنفه وفمه.. والرجل أخذ يحوم حوله واضعاً يده فى خاصرته.. يهز له رأسه الممدودة إلى الأمام متوعداً.. ويردد: كيف

تجرؤ على فعل كل هذا..؟

ولاحقه بلكمة قوية في صدره.. أوقعت اللفافة من فمه أرضاً.. نظرها بيجه ونظر الرجل.. ثم قام فارداً قامته العملاقة.. وفرك اللفافة بنعل حذائه.. وزأر بأسنانه.. ثم لف بجسده الممتلئ دافعاً صدره إلى الأمام ناحية الرجل..

تراجع الأخر بخطوات سريعة إلى داخل الصالة.. وقفل الباب بالمزلاج ما بينه وبين بيجه.. وأخذ يصرخ مستنجداً برجال الأمن.. صراخه أخذ يعلو من الفتحات.. يصرخ منفرداً مع نفسه.. وبيجه يقف متحدياً الفراغ أمامه..

وتجمع رواد النادى..

- ماذا فعلت بالرجل يا بيجه..؟

- ماذا فعلت به..؟

لمعت عينا بيجه وغالبته ابتسامة افتقدها من زمن فى هذا المكان.. وأخذ طريقه وسط الجموع فارداً قامته العملاقة.. رافعاً رأساً.. وعيناه تجوبان السماء.. وأخذ نفساً عميقاً عند آخر بوابة للنادى..

# لحظة وصول

بالأمس تركتها باكية أحمل القهر بين ضلوعى..

لا أحد فى انتظارى..

وحدى مع حقائبى.. دفعت العربة أمامى وعيناى تحومان حـــول المكان عسانى أجد من أتيت لأجلهم ينتظروننى.. كما انتظرتهم أنا فــى ليالى الشتاء الباردة..

أتحقق فى الوجوه والملامح.. لا أجد أحداً..

حيرة تجتاحنى.. تكاد تقتلعنى من مكانى.. شخص يقترب منى..

– سيدتى! أتبحثين عن شئ ما..؟!

– عفوا! أريد تليفون..

ومضى أمامى يشير لى بيده أن أتبعه حيث الهاتف.. توقف أمـــام كابينة التليفون.. وأخرج الكارت من جيبـــه.. وســألنى عــن الرقــم المطلوب.. فتحت أجندتى المتهالكـــة بالأرقـــام والعنـــاوين.. يـــداى ترتعشان.. عيناى زائغتان.. وأنا أفتش عن رقـــم ولـــدى التائـــه فـــى أجندتى.. هاهو.. نعم هذا هو الرقم.. تناوله منى وقال: معك الخط يـــا سيدتى..!!

رنين يصحبه رنين.. وهاهو صوته يأتيني من بعيد من الغيـــاب.. من النعاس والتثاؤب..

- حسن..؟
- أين أنتِ..؟
- أنا وصلت في أرض المطار.. كدتك تكون في انتظاري
- أنا انتهيت اليوم من الامتحان.. وأمكث في الفندق نائماً
- متى ستأتيني..؟
- بعد ساعة

ورضيت بهذه البداية.. وقفلت خط الهاتف.. وبدأت أبحـــث عـــن مكان أركن إليه.. أجلس.. ألتقط الأنفاس والأفكار..

ركن هناك يخلو من الجالسين فيه ظل مـــن حـــرارة الشـــمس.. اتجهت إليه بعربتي المحملة بحكاياتي المتواصلة.. وشـــكوى حقـــائبي مني من زمن بعيد..

جلست على السور.. استهوتني فكرة المراقبة من آت وذاهـــب.. لحظات وبدأ السور يمتلئ بالناس مـــن حولـــي.. وبـــدأت الكلمـــات المصرية تطوقني من كل مكان.. بدأت الحدوتة والحكاية مع ابن النيل والكلمة الخفيفة.. والحركة من ذاهب وقادم ومنتظر..

تحاصرني الأصوات المصرية.. رنين ومذاق..

ذكرتني بأحلام مصري في الغربة.. وكم من الرسائل أحملها مـــن هناك.. حملني اياها محمد وأحمد.. إلى مصر كلها.. وخجلـــت مـــن نفسي وأنا أذكرهم.. أنا هنا أستمتع بالركون والسلام علـــى ضفـــاف

الوادى.. وأبناء النيل هناك يعتصرهم الشوق فى البعد عـــن الوطـــن والأهل..

ستون دقيقة هى المسافة التى وصلت بها هنا..

ولكن حلم المصرى فى الغربة لازال بعيداً بعيداً.. أبعد من ســتين دقيقة وستين شهراً..

تلفت جانباً على صوت هامس ينادينى.. إنها سيدة تجلس بجـوارى على طرف السور مثلى.. تنادينى وتســألنى: بنيتــى! كـم الســاعة الآن..؟..

إنها الرابعة..

وبدأ حوارنا.. لم أحسب أننى سأتقابل مع هذه الســيدة المصريــة الآتية من أعماق الريف.. من الوادى..

تخيلتها أم محمد.. أو أحمد..

- هل أنتِ مسافرة يا سيدتى..؟

- لا.. بل أنتظر قدوم ابنى أحمد من أمريكا.. جئــت هنــا وبــاقى أبنائى لنكون فى استقباله..

دمعت عيناها من فرحة اللقاء المنتظر.. وآلام فراقها التى ودعتـها عندى فى هذه المحطة..

- أولادى كل مالى فى دنياي.. عشت الحــب معــهم بعـد فقـدان زوجى.. هم العمر الذى مضى.. لم أنم الليلة الماضية.. حضـوت الحمام والبط وكل الأكلات التى يحبها ابنى أحمد لكى لا أنشــغل بشئ سواه.. حتى أننى نسيت أن أحضــر دواء الشــغط معــى..

حضور أحمد أنسانى كل شئ..

بدأ أحمد يسيطر على كل أطـــراف الحكايـــة.. مـــا يحبـــه مـــن الأكلات.. وطباعه فى البيت.. وما يفضله فى لباسه وذوقه فى أناقـة.. وأصبح صورة لفتى أحلام فتيات الوادى والدنيا كلها..

كنت أقطع حديثها بالتفات منى يميناً ويساراً باحثة عن حسن وسط المغادرين والقادمين..

مرت ساعتان.. وبدأت أتخيله قادماً نحوى.. المجاميع قادمة.. مـع مجموعات والزحام من البعد..

ولكن تخيب نظراتى.. وتهرب خيالاتى كلها عندما يتفـــرق كـــل سرب من هذه المجاميع..

استجمعت قواى واتجهت يميناً نحو الرصيف المقابل لشاب يقـــف بظهره من بعد يركن إلى كابينة التليفون.. وأسرعت إليه لأفاجئه مـــن الخلف ويكون اللقاء..

وما كدت أهم لأستأذن السيدة للحظات لأتقابل بابنى حسن.. وهـــى غارقة فى دموع لحظة لقائها بأحمد.. وما كدت أتجه نحو هدفى البعيـد حتى شعرت بيد تمسك بكتفى من الوراء..

إنه حسن.. خلته يقف بالبعد وهو القريب الواقف ورائى.. نويـــت أن أفاجئه هناك.. فاجأنى هو.. وكان لقاءً أذاب جليد القلب المتحجـــر عبر أيام الحرمان الطويلة..

والسيدة نفيسة لازالت تجلس على سور الرصيف أمامنا..

كان لقاء جمعنا ثلاثتنا أنـــا وهـــو وهـــى.. وانـــهالت دموعـــها

واحتضنتني توصيني أن أحتمل باقي المشوار الطويل..

مضيت مع حسن يحتضنني وأنا مستندة على ذراعه كمن تـهاوت من سنين المر والتقطتني يداه..

والسيدة نفيسة همت تلملم نفسها عندما هتفت الأولاد مـن البعـد: أمي.. هيا.. لقد وصل أحمد.. نعم.. هيا..

وأخذ ابنها شالها الصوفي.. رماه على كتفيـها.. والابـن الثـاني جاءها مسرعاً.. مضت معهم رويداً رويداً مستندة على ذراع الأبنـاء.. على شقاء السنين الذي بات ظلالاً تظلل خطواتها..

مضيت أنا..

إلى محطات أخرى.. ومحطات..

# هدية بعد منتصف الليل

في عمق ليل كنت غارقة فيه.. طاوية حزناً وآلاماً تجتاحني ضاقت بي وضقت بها.. وجدت في النوم ضالتي المنشودة..

سمعت طرقاً آتياً من البعد.. إنه صوت آت من باب غرفتي.. قمت ألتفت بطريقة عفوية مفاجئة.. درت برأسي لأعرف مصدر الصوت.. وإذا به هو.. يقف بجوار سريري ينقر بأصابعه.. فأوحى لي بأنه يحمل لي خبراً لا يحتمل طلوع النهار..

استدرت بجسدي بكل قوتي أستجمع قوايا الواهنة من عالم آخر كنت فيه ولكنني لا أعرف عنه شيئاً.. بدأت أركز فيما يدور حولي هذه اللحظة..

قطع الصمت قائلاً: أنا أحمل لكِ هدية..

هدية منه هو..!!.. مستحيل.. كيف له أن يحمل لي هدية..؟! فأنا لم أعتد الهدايا منه أبداً..

تملكني فضول فيما أنا فيه الآن.. فضول ممزوج بتساؤلات تلاحقت في خاطري دون إجابة..

كان يتحدث بسرعة كعادته.. كلاماً متلاحقاً.. لم أستطع تجميع

كلماته أو تفسير ما يسرده..

صاحبني إرهاق من تعب ونوم واستفاقة مباغتة على خلاف كل يوم.. ووسط حديثه المتلاحق كان يذكر اسماً لشخص أكاد أذكره من زمن.. دكتور كرم..

وما هذه الحكاية..؟!!

نعم.. كرم أرسل لكِ معى هدية.. وأنا تركته لتوى بعدما مكثت معه وقتاً طويلاً هذه الليلة.. فوجئت به يوصينى بك خيراً ويؤكد علىَّ أن آخذ بوصيته.. وأرسل لكِ هدية..!!

اعتدلت بقامتى فى السرير.. وأسندت الوسادة وراء ظهرى.. عيناى تشخصان فى اللاشئ.. فما أسمعه الليلة جد غريب عليه..

مددت يدى لأتناول الهدية فإذا بها علبة جميلة لفت فى لفافة أنيقة توحى بالرقة.. فتحتها والدهشة تعترينى.. ونظرت باستغراب وحيرة.. وجدت قطعاً من الشيكولاتة متباينة الأشكال والألوان.. كل قطعة فيها تعلن عن حكاية وجمال.. أشرقت روحى بالهدية.. وفرحت النفس الحزينة.. فاحتويتها بكلتا يدي أتحسسها.. وأتأملها..

ما الذى ألم بى هذه الليلة..؟ هدية بعد منتصف الليل.. يحملها لى شخص لم أعتد منه الهدية..!!.. يرسلها لى إنسان لم أتقابل معه إلا مرات قلائل لا أكاد أذكرها.. كيف يذكرنى..؟ ويوصى بى خيراً.. ويؤكد ولا يكتفى بكل هذا فيرسل لى هدية..!!!

# صينية عزاء

نقر خفيف بالباب فى عصر يوم واهن..

عماد..؟ حمداً لله إذ حضرت..

كان واقفاً أمامها مهلهلة ثيابه.. معفر حذاؤه.. يترنح فى خطواته ليلقى بجسده فوق الأريكة الخشبية..

أسرعت إلى علبة المناديل.. تناولت منها ما يملأ كفيها متجهة نحوه لتمسح العرق المتصبب من جبينه..

تخاف أن ترمى له بالسؤال فتؤلمها الإجابة..

هو تائه دوماً فى جنازات الأصدقاء.. إذ حال الموت بيه وبينهم..

قطعت الصمت اللاهث بحوار تصنعه ليتوه فى أجواء جديدة..

عماد! لقد فكرت فى طهى اللحم وعمل صينية فتة لأرسلها إلى أم بسام.. فمصابها اليوم عليها وعلينا.. ولا أعرف حيلة للذهاب بها إليهم.. كلما فتحت النافذة المطلة على الشارع ترصدنى الدبابات ورجال القناصة.. أرى بنادقهم شاهرة عبر الفتحات الضيقة فى كل زاوية.. لقد أعددت كل شئ.. وفقدت كل أمل فى إرسال هذه الصينية إلى هناك.. ولكن كيف استطعت الوصول إلى هنا..؟!

تحدثه مسرعة.. تتجه إلى المطبخ لتحمل ما جهزته.. لتتدبر الأمر معه..

شخص إلى الصينية مردداً: لحم وأرز ببيت العزاء فى بسام..؟ قطع اللحم هذه شبيهة بقطع متناثرة على أرصفة شوارعنا.. والباقى منهم تائه بين الأزقة والمدن حاملين الأجولة باحثين عن بقايا الشهيد.. وتلملم قطعاً من جسد باسل وبسام وليلى وغسان.. ويسألون هلى بقى منهم شئ.. أما بقى لهم شئ آخر..

قطع اللحم هناك يا أختاه مغلفة بدخان الغدر.. وأكوام الأرز أصبحت أكفاناً تلملم ما تناثر منها..

من يحضر القدر..؟ من يوقد النار..؟ أين الأهل.. أين الدار..؟ هم الآن أكوام وحطام.. أشلاء.. أبو مازن يا سهيلة شاهدته اليوم بين الحطام يغرس أذنيه ما بين الأعمدة الخرسانية المتصدعة التى هوت على أحبائنا مفتشاً.. باحثاً.. أخاله يسمعها تئن وتصرخ.. صرخاتها تدوى فى أذنى يا سهيلة.. تنخر فى عظام جمجمتى.. رغبة القئ تراودنى..

احترق الكلام فى حلقه.. اصطكت أسنانه لتطبق على فم لم يعد يقوى على الكلام.. تبعثرت كلماته: أشلاء.. أشلاء..

ثم ساد صمت.

لملم حاجياته على سرعة.. أخذ طريقه نحو الباب.. وقفت حانية ظهرها.. وترقرقت عبر مآقيها عبرات تعرف طريقاً على وجنتيها.. وطريقاً آخر سار فيه عماد بعدما صفق الباب وراءه..

# الطريق من لبيشة إلى فلسطين

اعتدنا أن نلتقى هناك.. نجتمع ونتحدث.. نلقى بمـا فـى جعبتنـا فتبتعد الأفكار.. وتأتى بخيال يداعب الحقيقة.. فيقبل منا نفر ويعـترض آخر..

نزاحم عند الخروج.. ويتروى كـل اثنيـن يتحادثـان.. فـلازال للحديث بقية..

أتفحص الوجوه والملامح..

الجميع فى سباق مع الكلمة والقصة والمعنى..

ونعود أدراجنا مثقلين كما أتينا.. إلى أن نلتقى مرة أخرى..

المجلس اليوم كان محتشداً.. أصحاب الكلمة يأخذون أماكنهم حول المائدة.. ومع مرور عقارب الساعة تتسع الدائرة.. يتوافد الجميع.. كل منهم لاهثاً على موعده معنا.. وبدأت تتناثر الكلمات من حولى..

– أستاذ محمد! البقاء لله.. شد حيلك..

وما أن يفد آخر على مجلسنا وتقع عينـاه علـى محمـد خـيرى الجالس أمامى حتى يبادره بكلمات التعزية المألوفة لدينا..

بدأت أتجه بناظرى إليه.. وما كدت أرفع عينى عنه حتى مـالت

نحوى زميلة لنا ولكزتنى.. وأومأت بكلمات أكاد أسـمعها: مسـكين محمد خيرى.. هو عائد من قريته لبيشة بعد فقد الابن والزوجـة فـى شهر واحد..!!

استدرت أتفحص معانى الصدق مما تقول.. وكأننى أسمع نوعـاً من المزاح الثقيل.. فسارعت هى فاتحة عينيها على آخرهما تومئ لـى برأسها لتؤكد لى صدق ما تقول..

ومن لغة العيون هذه رحلت بناظرى لأتفحص هذا الإنسان الجالس على الطرف المقابل من الطاولة.. كوفية بيضاء يلفها حول رقبة كمـن يحبس همومه وأوجاعه فيها.. يكاد يحاكيها كلما اختلـى إلـى نفسـه متدثراً بها حول رقبته.. أخاله حيناً يرفعها فيوشوشها.. فتنسدل قليـلاً على أول صدره لتتركه وشأنه كما كان بيننا..

وبين الحين والحين يزوغ بنظره إلى أسـفل.. فزعـت ببصـرى معه.. إنها حقيبته يتفقدها بين الحين والحيـن.. وأكيـاس بلاسـتيكية يرفعها إلى أعلى الطاولة.. فنسمع خرفشـتها.. يفتـش فيـها.. كلـها أوراق.. كلمات.. مقاطع هو غارق معها..

كلما حدثه أحد من الجالسين كانت تسبقه ابتسامة تشع باسـتكانة.. تقطر رضى مطعم بالجمال مواسياً نفسه أمام مجلسنا بكلمـات رقيقـة يقولها لنا..

– لم أكن أعرف مقدار حبى لزوجتى إلا بعـد وفاتـها.. أيعقـل هذا..؟

الرجال فى مجلسنا أجادوا فى رمى شباكهم علـى هـذا الصيـد

الثمين.. رجل يعترف ويصارح.. بل هو معترف لهم منذ زمن.. وهم لا يتوقفون..

– أنت الآن فى نعمة يا رجل! حان لك أن تبدأ حياتك.. ذهبت أم العيال التى كانت تنغص عليك حياتك..!!

فيرد بقسمات وجهه المفعمة بالسماحة والرضى هادئاً مبتسماً.. أكياسه البلاستيكية ممسكاً بها.. وأيضاً حقيبته قابعة تحت مقعده..

وبانتهاء مجلسنا بادرته بتحيه بصوت مسموع..

– كم أنا سعيدة بوجودك بيننا.. وأتمنى أن تحرص على القدوم إلينا فى المرات القادمة..

رد ممتناً لحديثى معه.. وأذكر أنه قال لى إن كلماتنا إليه قد تكفيه للأيام القادمة لألا يضعف أمام أحزانه التى يعايشها..

كان يومها لقاءً ممتعاً.. فلقد حملت قصص أخى الراحل من عشرين عاماً.. وعشنا جميعنا مع كلماته فى قصصه القصيرة التى أثرت اللقاء..

استوقفنى محمد خيرى فى الردهة.. وطلب منى أعمالاً لأخى الشهيد باهتمام باد عليه.. وأنا حرصت أن أفى بوعدى إليه بأن تكون لديه كل القصص التى كتبها أخى.. وباغتنى بسؤال تحوم فى ظلاله سحابة الموت..

أتبكينِ لو مت..؟

تهاوت إجابتى: نعم سأبكيك..!

ومضى يومها فى طريقه يحاور عبد الله هاشم وكأنه سيطلعنى

على أوراق فى طيات الكيس البلاستيكى.. وعبد الله هاشم يشده من ذراعه ليمضى معه ويكون الحديث فى آخر لقاء..

وعشنا اللقاء الأخر.. نقف على باب مجلسنا نلقى التحيات.. يسير كل زاحد فى اتجاه..

أحمد حميدة الخطة دائماً متجهاً ناحية خط المترو.. لا يقصد الوقوف على المحطة.. بل يقطعها متأبطاً لذراع سعيد بكر.. غارساً رأسه فى صدره.. وسعيد يميل برأسه لتكتمل حروف الكلمات ويبدأ حوار خفى لا يعلمه إلا هو ورفيق الطريق الذى يسلكاه.. فيمتد بهما ويطول فى عتمة تغدو بها نسمات هواء بارد يلفح وجهيهما.. فيستفيقان بها من عناء جلستنا..

ولكنى لازلت أقف على درجات السلم.. وحديثى اليوم كان مع محمد خيرى.. حيث امتدت اللحظات إلى أن فتح الكيس البلاستيكى.. وأخرج الأوراق المرصوصة المرقمة بخطه الفاره الواثق..

وتحينت الثوانى القلائل لأغوص بين طيات أوراقه وهو يحملها ممسكاً بها بحرص.. وأنا كمن وقعت على أوراق ولا أستطيع النهوض إلا وبيدى شئ وأشياء..

سألنى: أقرأ لكِ شيئاً مما كتبت عنك..؟

فضولى كان هو الإجابة لسؤاله..

وبدأ يقرأ ما فى طى أوراقه.. وصوته المتمرس لحروف كلمات أخالها أفاقت من مرقدها الطويل فى سباتر نفسه المعذبة..

قرأها لى.. نغمات.. أو كعازف أوركسترا.. كل ما فيها شدنى..

ورق مخطط.. مقاطع.. كلمات أخذتنى إلى هناك حيث الوجــع الــذى يسكننى..

سافرت إلى حيث يرقد أبى فى ثرى بلادى.. وتمنيت لو أفاق مــن رقاده ليسمع كلمات محمد خيرى وهو يتحدث عن ابنته المحببة إلـــى قلبه..

ذكرتنى يا محمد خيرى بأبى.. وأمى التى باتت لا تسمع إلا أزيــز الطائرات.. نظرات الخوف فى عيون الأحفاد أنســـاها ابنتــها التـــى التحفت أرض الغربة.. وانغرست حتى النخاع فيها.. ولكن أقول لـــك أن الأنفاس تظل تهفو إلى حضن الوطن الغائب.. وإلى ثرى يضم أبــى وإخوة لى..

ولكنى اليوم لازلت هنا حيث تقول فى القول أجمله عنى.. أنا هنــا فى أرض الوادى.. فى وطن أكبر يضمنى وإياكم حيث محمد خــيرى، أحمد حميدة، حنان سعيد، عبد الله هاشم..

مضى محمد خيرى يلملم أوراقه فى حقيبته البلاســتيكية.. وأنــا مضيت حائرة فى كلمات أكتبها إليه..

وتظل كلماتى هذه عاجزة عن الوصول إليك لتخـــبرك بحكايـــاتى التى عرفتها أنت قبل أن أعرفها أنا.

# الخيوط المتقطعة

لمعت فكرة السفر فى عقله وبات يدبر لها..

ومع بداية يوم جديد كان كل شئ معد.. فحقيبته تحتوى كل ما قد يحتاجه..

لا شئ يشغل باله سوى أن يكون على الطريق مع المسافرين والقادمين.. تاركاً كل شئ وراءه.. فحياته يعيشها كما يراها هو..

خيوط كثيرة تعلقت به وترك لها أطرافاً منه لتمتد إليها.. تتعانق لتتشابك بها فيعيش اللعبة..

يصارع الواقع فى الخيال فينفلت منها حيناً.. ويمسك بها حيناً آخر..

قد ينام يحلم بها..

وقد يصحو غير عابئ لما يدور حولها..

وكثيراً ما يمسك مقصاً ويترصد الخيوط فيقطعها.. فتسقط متهدلة ميتة.. يلملمها بأطراف أنامله ويلقى بها إلى هوة سحيقة.. غير عابئ بما يفعله..

ولم يسأل نفسه:

لم ترك لها أطرافاً من جسده تتعلق بها.. وتنسج خيوطاً لتبنى بيت العنكبوت.. فتتكفئ عليه لكى لا يخترقها أحد..

ولم يطاوعه قلبه فى لحظات ليلقى بكـــل الخيـــوط إلـــى الـــهوة السحيقة..

ثم ينفض جسده من كل ما تعلق به.. ويعيش كما هو مخلوق على كوكب الأرض متوحداً مع نفسه.

# وطن فى حقيبة

أسافر كثيراً.. تبتلعنى المسافات ويطول الغياب..

فأنا قصتى تشابه قصص الكثير من الشباب من أهل بلدتى، فمنـهم من يرحلون وتطول أيام الرحيل، ويعودون وتكون أيام العودة قصيرة، وما أن يصلوا وتطأ أقدامهم أرض الوطـن حتـى يشـدهم الرحيـل والغياب..

تجربتى فى العودة تمتزج بالألم والسعادة، فالطرق المؤديـة إلـى بلدتى مختلفة، أحياناً طريق عودتى عبر نهر الأردن أو منفذ رفح إلـى فلسطين، وفى كل مرة ينتابنى نفس الشعور عندما أمر عبر الشـريط الحدودى، إذ بفلسطين أمامى، أقف عند أول نقطة من حدودها، أجـد نفسى دون أن أدرى أملأ صدرى بهواء غاب عنـى زمنـاً طويـلاً، وأنظر إلى قدمي فأجدهما على ثرى بلادى تقفان، فمرات تكون رمـال ناعمة أو أرضاً تملؤها الصخور الصغيرة المبعثرة، وأطوف بنـاظرى لأملأ عيني بالمكان وأتنفس هواء بلادى.. أى ثرى هذا الذى أمضـى إليه...؟

أى نقطة حدودية أقف عليها...؟

أهذا عطر لوجودنا...؟ أهذا مكان دفن فيه الجدود...؟

فيا وطناً طال انتظارك وطالت أيام الغياب.. العائدون كل يوم يعبرون إليك على الألم هم صابرون.. والمعاناة هم يعيشون..

فيا وطناً يا حبيباً طال البعاد عنه ما الذى أراه فيك...؟!

طفت بلاد الدنيا فما أحببت إلا هواك.. وما عشقت إلا ثراك..

هنا اللحظة التى أجد فيها العيون الحائرة فى شباب وشيوخ وأطفال، فعلى الشريط الحدودى تركت لنا رسالة بدخولنا هذا الوطن، بإذن وشروط نخضع فيها للقهر..

كلنا يمر ومعه هذه الرسالة غير المقروءة ولكنها تمس الحس والفؤاد، نجلس هناك مجموعات، وتبدأ عملية النداء على السماء، ويطول انتظارنا كما فى بعادنا.. وتحت وهج الشمس تتم عملية التفتيش لدواعى الأمن، وغالباً ما تقوم بهذه العملية مجندات من جيش الدفاع الإسرائيلى، فالملامح باردة، والخطوات يقمن بأدائها مدروسة متقنة وفى هدوء تام، فهن يتعاملن مع الأشياء بالنظر واللمس والاستعانة بالأجهزة ذات الكفاءة العالية، كل هذا حفاظاً على أمن إسرائيل..!!

والتجاهل المقصود لكل فلسطينى يعبر إلى أرض الوطن، ونحن على عهدنا ألفنا الانتظار وكأننا على موعد معه، فهى ضريبة العودة إلى أرضنا... أطفالنا صغارنا يعبرون ولكن السؤال هنا لا يعرفون له إجابة: لماذا الانتظار فى لهيب الشمس؟.. والأطفال يصرخون فى

أحضان أمهاتهم عساهم يجدون الوسيلة للخلاص والوصول..

ومع طول انتظارنا وعمق معاناتنا تجدنا دون أن نشـــعر أقـــارب وجيران وأخوة، فالمعاناة جمعت ما تبقى لنا فى ثرى هـــذا الوطـــن.. نتعاون ونحتمل ونصبر، لنعبر إليه، فكل شئ فيه ينادينـــا مـــن علـــى البعد، والإصرار يملؤنا للعودة..

وعندما رحلت وعدت إلى هذا الشريط الحدودى الذى عبرت منـــه جال بخاطرى أن أحمل وطنى هذا وأمضى به حيث أكون.. فوجـــدت أن هذا من دروب المستحيل..

فما كان منى إلا أن انحنيت جانبـــاً وأخـــذت ألتقـــط الحصـــوات الصغيرة والرمال الناعمة واضعة إياها فى جراب أحمله معى متحايلـــة على واقعى المرير هذا فى أن أحمل جزءً من هذا الوطن فى إحـــدى حقائبى.

غمرتنى السعادة وطرت من شدة فرحتى فها أنا ذى أحمل وطنـــاً فى حقيبة..

وما أن وصلت إلى مكان اغترابى سارعت لفتح حقائبى، وأول مـــا لمست يداي الجراب الذى أحمل فيه هذا الوطـــن لمســـت حصواتـــه ورماله ووضعتها فى قارورة زجاجية بيضاء اللون علـــى مكتبـــى.. عسى أن أجد فيها سلوتى لفراق لا أعرف مداه..!!

# أخى تمهل..
# لتحمل رسالتى معك

وجهك الأسمر.. ونظارتك المستقرة على أنفك الشامخ، تغطى مساحات من تقاطيع وجهك الندى.. وابتسامتك المغردة فى الذاكرة البعيدة..

أشاهدها مسافرة فى كل بلاد الدنيا.. أحزن لها حيناً.. ويزهو بها قلبى حيناً آخر.. وأعود لأمسك بأطراف الماضى البعيد..

يوم تأرجحت بكف يدك الممدودة فى بئر المياه المحفور فى بستاننا على سفوح جبال "دورا الخليل" التى ترتفع وتمتد لتعتلى فلسطين كلها..

•••

متأرجحة بكف يدك.. بأناملى الصغيرة.. تلقى بى وأنا أقاوم السقوط.. بوجهك الضاحك تنظرنى.. كنت تداعبنى لعبة الخوف والصمود.. تعربشت(؟؟) أناملى وقلبى بك منذ تلك اللحظات.. فظل هذا الحبل ممدوداً بينى وبينك..

•••

محطة رمسيس..

قطار الإسكندرية..

أخذت مكانى فى المقصورة.. ومقعد مجـاور لزجـاج النـافذة.. عجلاته تلهف قضبان الطريق.. تتمازج بـها فتشـق أرض الـوادى لتغوص فى حضنه الاخضر..

وأعاتب الزمن فيك مع شمس مغيب ليوم مسافر.. وأرض ظمآنـة تتلهف على شاب أسمر حمله هذا القطار من هنـاك حيـث محطـة رمسيس.. حيث كتبت الشمس تذوب.. والتقيت بغروب على الطريـق المسافر فى محطاتك التى كانت دوماً مسافرة..

•••

أذكر يوم لزمتُ الفراش فى الإسكندرية.. وجئـتَ إلـى القـاهرة لحضور مؤتمر صحفى.. أرسلتَ تطلب لقائى..

لو استطعت الوصول إليك لكان هو اللقاء الأخير..

خانتنى قواى مثلما خانتنى وأنا متعلقة فى البئر السـحيقة وأنـت ممسك بذراعى..

•••

تذكرت لقائى الأخير بك.. هناك فى بيروت..

حقائبى مقفلة مغادرة للمرة الأخيرة إلى القاهرة.. كل شئ معد ولم يبق إلا الوصول إلى غرفتك..

أتعرف يا أخى أننى كنت أشعر بالحرج قبل النقـر علـى بـاب غرفتك للدخول..؟!!

فكم من الليالى أمضيتَها ساهراً مع "أبو صالح" قـائد الجنـوب..

وكلما صحوتُ فى هزيع الليل الأخير أجدك معه ترسمان الخرائـــط.. تعدان الخطط.. وعلى بصيص لنور شمعة ذابت وأشعلت لنفسها فتيـلاً مرة أخرى..!!

ولكنى هممت بعزيمة للدخول إليك.. نقر بالبــــاب.. ويــد علـــى المقبض.. إلى غرفة معتمة.. شعرتَ بخطواتى.. فنـــهضتَ تســتعدل جسدك المتعب رافعاً وسادتك لتسند ظهرك عليها..

فشخصت عيناى بمسدس يرقد تحتها..

وأذكر الرشاش المقاتل يلازمك فى خطواتك..

•••

وفى الاتجاه المقابل انهيار لجدار غرفتك من قذيفة مدفعية كـــانت تحاول النيل منك..

وقفت متسمرة أحاذى مخدعك بحذر شـــديد.. وصـــورة ســبقت اللحظة التى مددت ذراعيك لتقبلنى..

•••

كتب مختلسة من غرفتك المنزوية فى غزة.. كنت أتسحب أثنــــاء النهار.. أفتحها.. أشاهد ما أشاهد فيها.. وأقرأ ما أقرأ.. وأعيدها تحت وسادة تشبه لحد كبير هذه الوسادة التى تستند عليها..

•••

يوم كنت فى بيروت دعوتنى لحضور فيلـــم فـــى دار عـــرض.. سألتك عن اسمه.. قلت إنه لأرنست همنجواى "وداعاً للسلاح".. أذكــر هذا الرجل جيداً يوم رحلت من غزة.. وبنيتَ صورة للرجل ذى اللحية

البيضاء تأخذ حيزاً من حائط غرفتك فى دارنا هناك..

يومها كنت بجوارى.. وغالبنى النعاس.. تلكزنـــى بيــن الحيــن والحين.. تسألنى هل أتابعه معك.. فأجيب باستفاقة مفاجأة: نعم.. نعم..

ويكون من مفارقات القدر أن أكون معك فى آخر مشاهد عشــناها سوياً..

•••

كثيراً ما أعاتب نفسى فى لحظات السفر والغياب والعـــودة إلـــى محطات ومحطات مسافرة..

وأنت يا أخى غائب عنا فى الردى..

أفتقدك فى لحظات سعادتنا.. ولحظات مر وقهر نعيشها..

قد تكون إجاباتك مكتوبة بحروف كلمـــات كتبتــها.. وخطابــات ألقيتها.. وقصص طويتها.. ورشاش تعلق بكتفك..

•••

مشاهد استشهادك مشاهدة فى قصصك.. متوهجة فى حوارك مـــع "الزنجية" ونصل الإبرة المغروس فى ظهرك..

أتعرف يا أخى وحبيبى أنك تغوص فى نفس معذبة.. فى نفســـى أنا..؟!!

أنا كمن رميتنى فى هذا البئر السحيق وكنت معى.. وكلانـــا فـــى الجب سوياً.. فأى غريق يصارع الحياة فى الموت يكتب لك كلمات..

أنا غرقت فى بحر الدم يوم فتح والدى المذياع يستمع إليــــه فـــى حديقته الفلسطينية.. أشجار البرتقال فى غزة لازالت تلـــف حديقتنـــا..

ودوالى العنب متعربشة فى كل مكان خطت فيه خطواتك..

سنوات طويلة عشناها مع أبى والمذياع صديق له.. يحمله فى كل مكان.. محطاته معروفة.. كانت رسائلك تعبر من خلاله.. قد تأتى بخبر عنك أو تذاع كلماتك من خلاله.. فينتعش قلبه الحزين.. ويواوده الأمل بالوطن المقهور.. العائد.. وابن يقتفى أثره خلف الجبال.. لعودة قريبة..

ولكن فى هذا اليوم وشوشه بكلمات نحيب وشجن..

رحل صاحبك يا أبا البطل.. يا أبا الشهيد.. تفتت قلبه.. واحترقت له حوائط روما..!!

يومها يا ماجد كانت دموع أبى تقطر دماً.. بدا تائهاً.. مكسوراً.. محسوراً.. يغدو فى طرقات حديقته الفلسطينية.. لا يعرف طريقاً يعبر به إليك.. كل الطرق مغلقة إلا طريق واحد هو الذهاب لحملك حيث النهاية..

•••

مع أول خيوط الفجر رحل أبى إلى بيروت ليحملك إلى آخر محطاتك.. رحل إليك بعد فراق سبعة عشر عاماً.. ويوم لقائك به كنت مغلفاً محاطاً بالدخان والجسد المحترق..

وأنت يا ماجد استطعت أن تتسلل إلينا فى فلسطين بعد غياب ورحيل من الكرك إلى عجلون إلى بيروت وكل بقاع الأرض..

أبى رحل ليحمل جسدك المحترق هناك.. ولكنك أتيت إلينا يومها محمولاً على الأكف.. ونثرت الورود على جسدك فى شوارع صفد

والخليل ونابلس وطولكرم..

وسافرت الزغاريد محملة بأكاليل الغـار.. وصـورة استشـهادك حائمة مع كل زغرودة وأغانى رددها الأطفال مـن وراء أمهاتـهم.. يسلكون طريقاً رسمته لهم باتوا يعرفونه جيداً..

لم أكن مع أبى فى رحلة وداعك هذه.. ولكنى كنت فـى عـرس فلسطينى بمذاق مختلف فيه الشجن والألم والفخر و ...

كلمات التعزية فيك كانت تصعقنى بالحقيقة المرة التى أقول إننـى ربما أكون فى حلم مزعج.. قد أصحو منه.. ولكن بعودة أبـى بـانت الحقيقة تجثم على عيوننا.. ربطة عنقه سوداء..

أسرعت نحوه مصافحة مقبضه.. ربت على كتفى.. كان يومـها كثير الحركة لا يريد أن يتوقف.. يتحادث مع المجاميع التـى أقبلـت تلتف حوله لكى لا يطاله حديث أو سؤال سائل:

أين دفن ماجد..؟

اتجه نحو الحرم الإبراهيمى.. أريد أن أصلـى ركعتيـن.. هـذه الركعات كان لك علاقة بها لا يعرفها إلا أبى..

اقتربت منه بعد عودته من المسجد.. تعلقت بذراعه فمال نحوى.. وشوشته بكلماتى:

- ما الذى حدث هناك يا أبى..؟

- لقد وضعوه فى صندوق معدنى لحين يأذن الله وندفنه هنـا فـى "دورا" كما كان يتمنى..!!

صرختى دوت واحترقت لها الأرض إلى آخر حدود الوطن..

- أين أخى..؟! أين ماجد يا أبـــى..؟! لا أريــده فـــى صنـــدوق معدنى..

•••

أفلتت يد أبى منى وخلت أن الأرض مالت به ليهوى.. فالتقطـــه.. وكان عناقاً مريراً..

وتظل العيون تبحث عنك بين أشجار الزيتون ودوالـــى العنـــب.. أشجار التين والبلوط.. وعلى قمم الجبال فى الخليـــل.. حيـــث أســـمع صدى صوت الشاب الأسمر:

يا أخوتى أشد على أيديكم..

فلا زالت اليد ممدودة .. يدى أنا وأنت تسقطنى فى هوة البـــئر.. وأيدى شعبك ممدودة.. نقشاً على قلوبنا.. وفى قلوب أجنة فى أرحـــام أمهاتهم فى فلسطين..!!

# الفهرس

## تابع الفهرس



رقم الإيداع ٢٠٠٢/١٠٥٥٣

• كتبت قصص هذه المجموعة بين عامى ١٩٩٩م /٢٠٠٢م

## الكاتبة فى سطور

- بشرى محمد أبو شرار
- من مواليد غزة بفلسطين
- ليسانس حقوق، جامعة الإسكندرية، وتعمل بالمحاماة
- نشرت قصصها فى بعض الصحف والمجلات المصرية مثل: جريدة القاهرة- ومجلة الكلمة المعاصرة- ومجلة أمـــواج سكندرية على الإنترنت وعنوانها www.amwague.com
- تأثرت بأخيها الأديب الشهيد ماجد أبو شرار.
- يسر الكاتبة تلقى آراء القراء فى المجموعة على العنـــوان التالى:

ج.م.ع. - الإسكندرية - سيدى بشر بحرى
شارع ١٦- رقم (٥)

